المؤلفات الكاملة

الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي

ما وراء الشرّ

بحثٌ في فلسفةِ الشرور وتحديدِ الموقفِ إزاءَها

ترجمة: علي الهادي مشلب



ما وراء الشرّ

بحثٌ في فلسفةِ الشرور وتحديدِ الموقفِ إزاءَها

آية الله الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي

ترجمة

علي الهادي مشلب

الطبعة الأولى

ISBN 978-614-440-207-8

[٢٠٢٠م – ١٤٤٢هـ]



العنوان: لبنان – بيروت – سان تيريز - سنتر يحفوفي – بلوك c – ط ٣
تلفاكس: ٠٠٩٦١٥٤٦٢١٩١ - mail: almaarf@shurouk.org

تصميم:

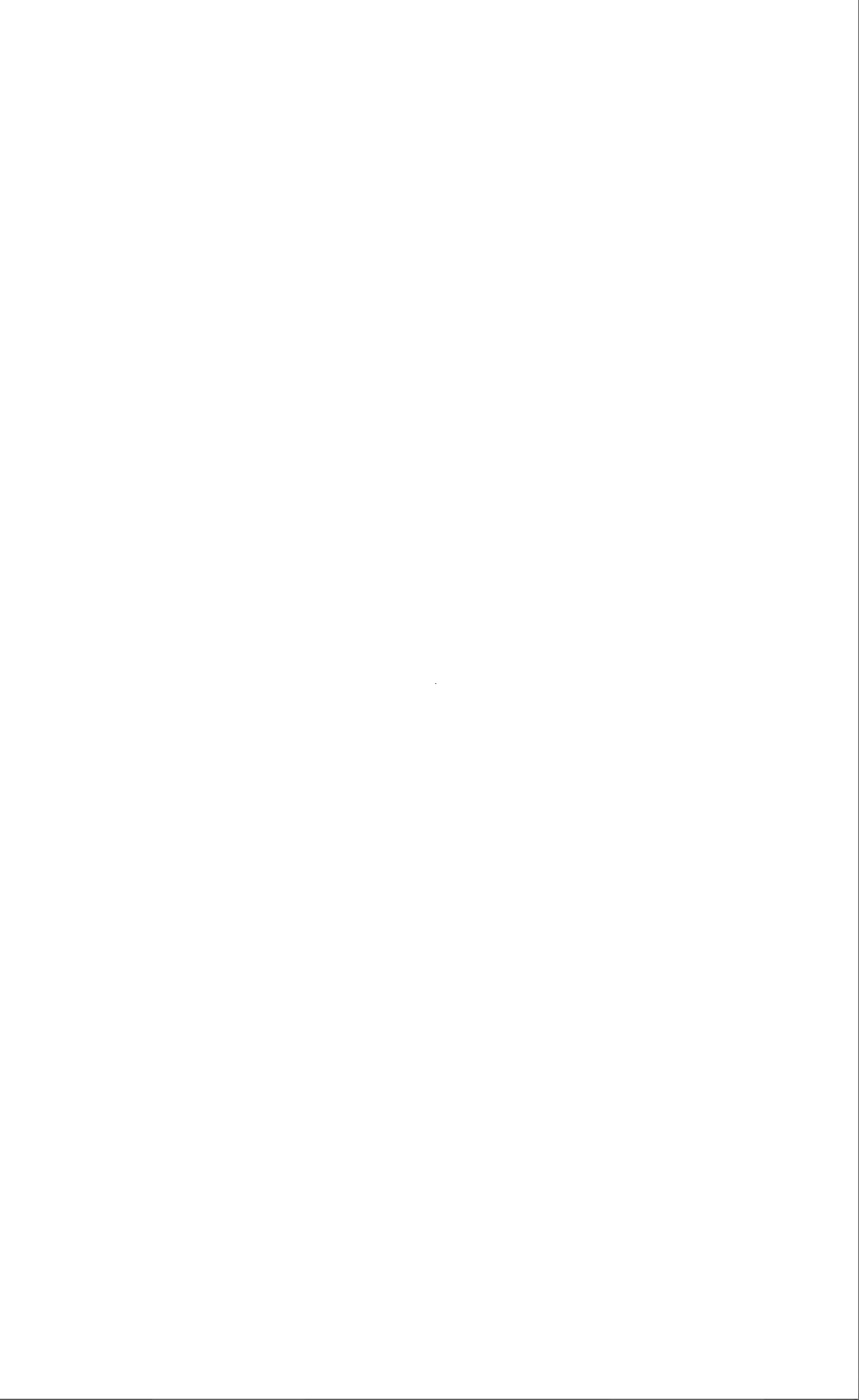
زينب ن ترمس

إخراج فني:

ماجد مصطفى



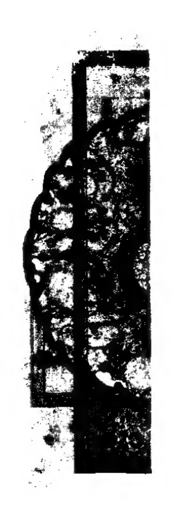






الفهرس

إشارة



هـذا الـكـتـاب هـو حـاصـل ثـلاث جلسات من المحاضرات والأسئلة والأجوبة لآية الله العلّامة الشيخ محمّد تقي مصباح اليزدي حفظه، والتي عُقدت في شهر «اسفند» من العام ١٣٩٨ هـ ش.[١] بعد شيوع وباء «كورونا» في الجمهوريّة الإسلاميّة في إيران.

يشير الشيخ حفظه، في مستهلّ حديثه، إلى أنّ مسألة البلاءات والشرور يُمكن أن تُبحث من بُعدَين اثنَين: الأوّل نظري، والثاني عملي. وعلى هذا الأساس، فتارةً نبحث حول فلسفة وجود هذه البلاءات وتوجيهها بالالتفات إلى حكمة الخالق جلّ وعلا، وأخرى نريد أن نحدّد وظيفتنا العمليّة عند وقوع هذه البلاءات والأوبئة والحوادث، وبتعبيرٍ آخر «الشرور». فبوصفي فردًا مؤمنًا، ما هي ردّة الفعل المناسبة التي ينبغي أن أُبديها في مثل هذه الظروف، سواء على

(١) الموافق لشهر آذار من العام ٢٠٢٠ م.



الصعيد القلبي الجوانحي - الرضا وعدم الرضا - أم على الصعيد الظاهري الجوارحي.

بعد ذلك، يتصدّى الشيخ بأسلوبٍ بليغٍ وبيانٍ سلسٍ لحلّ العُقد الذهنيّة الموجودة حول هذه المسائل، مُستفيدًا من المقدّمات العقليّة وكذلك الآيات الكريمة والروايات الشريفة. وفي الختام، يُجيب ﵀ على سبعة أسئلة مهمّة وجّهها إليه بعض الحضور. وإنّ من شأن هذا القسم الأخير أن يُساعد كثيرًا على إيضاح أبعاد المسألة بنحوٍ أفضل.

يُمكن أن يُدعّى أنّ هذا الكتيّب - مع صغر حجمه - قليلٌ نظيرُه لجهة البحث التحقيقي الوارد فيه لأبعاد مسألة البلاءات والشرور، بل لعله لا نظير له من تلك الجهة. ومن هنا نوصي جميع أرباب المعرفة وكلّ مشغول بتحصيل الفهم الأدق والعمل الأفضل بمطالعة هذا الكتيّب مطالعةً دقيقةً وعلميّةً.

المقدّمة

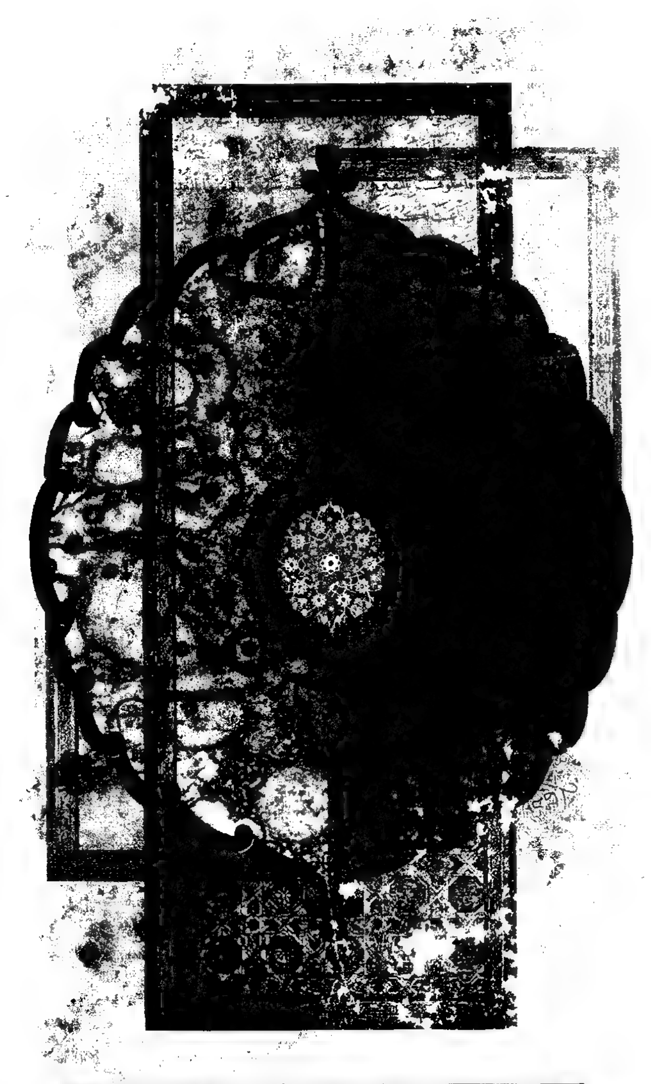
يدور في هذه الأيّام الحديث كثيرًا حول البلاءات والمصائب والأوبئة، وخاصّةً ما يرتبط بمسألة فايروس «كورونا»، هذا البلاء الذي تفشّى في أكثر بلدان العالم، وها هو يشتدّ وينتشر يومًا بعد آخر. وفي هذا الخضم تُطرح اليوم أسئلة كثيرة حول أمثال هذه المسائل من مختلف شرائح المجتمع ومن أصحاب المراتب المتفاوتة في الفهم والتحصيل والمعرفة والإيمان. ومن جملة هذه الأسئلة أنّه «ما هي الحكمة وراء وقوع هذه الآفّات والبلاءات التي قد تنتشر أحيانًا حتّى تشمل كثيرًا من الدول فيُبتلى بها حتّى الأطفال ومن لا ذنب لهم؟». وعلى هذا الأساس، فإنّنا نسعى هنا لتقديم بحثٍ جامعٍ نسبيًّا بحيث يشمل على الأقلّ العناوين العريضة لهذه المسألة، وإن كان لا يدخل بنحوٍ كامل في جزئيّات هذه العناوين.

وإنّ هذا البحث قابلٌ لأن يُطرح في بُعدَين اثنَين: البُعد النظري والبُعد العملي. والمقصود من ذلك أنّنا تارةً نريد أن نفهم - وفق النظرة العقليّة والفلسفيّة - التوجيه



العقلاني لوجود هذه البلاءات والآفّـات - أو ما يُسمّى اصطلاحًا بالشرور - وعلّة وقوعها وكيفيّة حدوثها، وهذا هو البحث النظري. وتارةً أخرى نكون بصدد تعيين الوظيفة المناسبة التي ينبغي على الإنسان أن يؤدّيها في مثل هذه المواقف، وهذا هو البحث العملي.

وبناءً عليه يُمكن تقسيم البحث بنحوٍ كلّي إلى قسمَين: القسم النظري والقسم العملي.



أوّلًا: البحث النظري في مسألة الشرور



سابقة البحث النظري في مسألة الشرور

فيما يرتبط بالبُعد النظري للمسألة، وضمن حدّ اطّلاعنا على المباحث الاعتقاديّة والفلسفيّة القديمة، يُمكن أن يُقال إنّ مسألة الشرور واحدة من أقدم المباحث التي طرحها البشر في باب معرفة الوجود. فمنذ أن وُجد الإنسان في هذا العالم وهو يواجه أمورًا ينتفع منها، يلتذّ بها، ويفرح بسببها. ويواجه في مقابل ذلك أمورًا أخرى تُسبّب له الألم وتعود عليه بالعناء والتعب، أو تشكّل له مانعًا أمام صدور الأفعال الخيّرة وتحقُّق خيراتٍ أكثر.

النظرة الماديّة حول الشرور

يذهب «الدهريّون» - الذين يُعتبر مذهبهم من مقتضيات المذهب الماديّ - إلى القول إنّ جميع الشرور لوازمُ لطبيعة العالم. وليس بالإمكان، بناءً على النظرة الماديّة، تحديد برنامجٍ منظّمٍ ودقيقٍ للعالم، أو توضيح كيف كان وكيف هو الآن وكيف سيكون في المستقبل. إذ ليس لهذه الأسئلة،



وفقًا لأصول الماديّة، جوابٌ قطعي. ولا يدخل أنصار هذا الاتّجاه من الأساس ميدان المباحث الإلهيّة ومباحث معرفة الله والحكمة من الخلق وأمثال هذه المسائل، لكونهم ينكرون وجود تدبيرٍ حكيمٍ يحكم هذا العالم. من هنا، فإننا سنترك البحث حول هذا المذهب بشكلٍ كلّي، لأنّ الموضوع النظري الذي نروم بحثه هنا إنّما يُطرح عند القائلين بوجود خالقٍ حكيمٍ للعالم. فأمثال هؤلاء يسهل عليهم تقبّلُ أنّ الأمــور الخيّرة في هــذا العالم قد صــدرت عن حكمةٍ ومصلحة، وأنّ الصفات الإلهيّة الحُسنى هي منشأ وقوعها، ولكن بمجرّد أن يصل الكلام إلى مبحث الشرور فإن تقبُّل الأمر يصعب عليهم.

النظرة الثنائيّة في مسألة الخير والشر

ظهر، منذ قديم العصور، أشخاصٌ يقولون بالثنائيّة، بمعنى أنّ لهذا العالم مبدأَين: مبدأ الخير ومبدأ الشر. وذهبت مجموعة من بين هؤلاء إلى القول إنّ هذَين المبدأَين في عرض بعضهما، ويُمكن أن نُطلق على هذا الـرأي اسم «الثنائيّة العرضيّة»، وقد نُسب إلى بعض الحكماء القدماء مثل هذا الرأي، حيث قيل إنّهم كانوا على اعتقاد بوجود مبدأَين مستقلَّين للعالم، أحدهما مبدأ الخير والآخر مبدأ الشر. فالأوّل ذاته تقتضي الخير، لذا هو مبدأ جميع خيرات العالم، والثاني ذاته تقتضي الشر، لذا هو مبدأ جميع شرور العالم.



أمّا البعض الآخر فكانوا يعتقدون أنّ الإله «آهورامزدا» قد خلق كلّ شيء، وكان من جملة مخلوقاته موجودٌ يُدعى «أهريمن» الذي هو مبدأ الشرور في العالم. فهذه الشرور مصدرها «أهريمن»، ونِسبَتها إلى الإله الخالق «آهورامزدا» هي بواسطة «أهريمن»، لأنّه هو خالق «أهريمن» فيُعتبر خالق أفعاله أيضًا. ويُطلق على هذه الثنائيّة اسم «الثنائيّة الطوليّة». ولربّما يقول بعض هؤلاء إنّ الإله «آهورامزدا» ليس راضيًا عن خلق «أهريمن» والأفعال التي تصدر منه. وهو شبيهٌ بما ورد في التوراة من أنّ الله تعالى بعد خَلقِه لآدم وحوّاء عليهما السلام وأَكْلهما من الشجرة الممنوعة، قد ندم على خلقهما!

مقتضى الرؤية التوحيديّة في هذه المسألة

وأما ما تقتضيه تعاليم الاعتقادات التوحيديّة والأديان الإلهيّة - وخاصّة الدين الإسلامي - في ما يرتبط بهذا الباب بشكلٍ مباشرٍ فهو أن نقول: إنّ لكلّ الوجود خالقًا واحدًا، وهذا الخالق واجدٌ لجميع الكمالات والصفات الخيّرة، ووجوده منزّهٌ عن كلّ نقصٍ وشر، وكلّ الموجودات مخلوقة له، وقد خَلق كلَّ شيءٍ على أساس الحكمة والمصلحة.

علّة خلق الشرور

وبعد العرض الإجمالي للرؤيّة التوحيديّة في هذا الباب يُطرح سؤالٌ مهمّ وهو: لماذا يخلق اللهُ تعالى الشرورَ؟ وبعبارةٍ أخرى: كيف يمكن وفق النظرة العقليّة توجيهُ

مسألة أنّ إلهًا حكيمًا يخلق هذه الشرور مع أنّه خيرٌ محضٌ ولا يريد سوى الخير وليس في وجوده أيّ صفةٍ قبيحةٍ أو عامل شر؟

وعلى طول المراحل المختلفة من تاريخ الإسـلام، طُرحت بين العلماء المسلمين أبحاثٌ غاية في العمق والسعة حول مسألة الشرور هذه. ويُعدّ أشهر الأجوبة الفلسفيّة حول هذا السؤال هو القول إنّ هذه الشرور هي في الواقع أمورٌ عدميّة، ولا يصدق عليها في الحقيقة عنوان «الخلق» و«الإيجاد» و«الصدور».

وهذا التحليل، وإن كان يُعالج إشكالًا فلسفيًّا دقيقًا يرتبط بمناسبات العلّة والمعلول - وهو أنّه كيف يمكن أن يصدر عن علّة هي خيرٌ محضٌ معلولٌ يكون شرًّا -، إلّا أنّ هذا السؤال يبقى على كلّ حال وهو: «لماذا لم يُخلق العالم بنحوٍ لا تُنتزع منه هذه الأمور العدميّة؟»، فتلك النار التي تُحرق الإنسان وتلك الأمراض - كالسرطان ووباء كورونا - التي تفتك به وأمثالها من الشرور هي أمور وجوديّة حتّى وإن قلنا بالتحليل العميق بأنّ حيثيّة كونها شرورًا ترجع إلى العدم. ففي النهاية يبقى هذا السؤال عالقًا في الأذهان: «لماذا يخلق اللهُ الحكيمُ الرحيمُ أمثالَ هذه الأمور المؤذية؟».

وكذلك فإنّ جميع المسلمين - بل وأتباع جميع الأديان - يعتقدون بوجود العالم الأبـدي، وأنّ في ذلك العالم مكانَين، الأوّل هو الجنّة التي لا شرّ فيها، والآخر هو جهنّم



التي لا خير فيها. ولكنّ السؤال هنا هو أنّه: «لو لم يخلق اللهُ تعالى جهنّمَ، ماذا كان سيحدث؟».

أنواع الشرور

وفي مقام الإجابة على أمثال هذه الأسئلة يُمكن القول إنّ المخلوقات التي نسمّيها شرورًا يُمكن تقسيمها إلى فئتَين: الفئة الأولى هي الشرور التي تتحقّق في هذا العالم، والفئة الثانية هي الشرور المرتبطة بالعالم الأبدي.

ويمكن تقسيم الشرور المتحقّقة في هذا العالم بدورها إلى فئتَين: الفئة الأولى هي الشرور التي تحدث من دون تدخّلٍ للإنسان أو أيّ موجودٍ مختارٍ آخر، وهي ما نسمّيه بـ«الشرور الابتدائيّة»، والفئة الثانية هي الشرور ذات الجنبة الثانويّة أو الانفعاليّة، بمعنى أنّ موجودًا مختارًا يقوم بعملٍ معيّن فيتحقّق على إثره شرٌّ في العالم، من قبيل أن يرتكب الإنسان ذنبًا فيُبتلى بآثاره السيّئة، فهذه «شرور ثانويّة» أو «شرور انفعاليّة».

وإنّ من الأبحاث التي تُطرح فيما يرتبط بالشرور الدنيويّة مسألة كونها «نسبيّة». فصحيحٌ أنّ النار مثلًا تُحرق الورقة ولكنّها أيضًا سببٌ في طهو الإنسان لطعامه وفي تدفئة محيط عيشه، فتحميه من البرد وما ينشأ منه من أمراض. إذًا، هذه الشرور نسبيّة، بمعنى أنّها خيرٌ من جهة وشرٌّ من جهة أخرى.



وإنّ موضوع بحثنا والذي تدور حوله أكثر الشبهات هو أنّه «لماذا يخلق اللهُ تعالى الشرورَ في هذا العالم مع أنّها موجبةٌ للألم والعناء والانزعاج والمشقّة؟».

فلسفة خلق الإنسان في الدنيا

وإنّ الإجابة على هذا السؤال تتضّح عندما نفهم في الأساس السبب الذي من أجله خلق اللهُ الحكيمُ الإنسانَ في هذا العالم؟

فبعد أن خلق الله تبارك وتعالى جميع العوالم، من العوالم العلويّة والملائكة المقرّبين و«العالين»[(١)]، إلى الملائكة المتوسّطين والمرتبطين بعالم البرزخ والمثال، وصولًا إلى الملائكة المرتبطين بهذا العالم، أفاض الله برحمته على جميع هذه الملائكة بحسب استعداداتها - ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾[(٢)] - إذ إنّ لكلّ منها استعداداته الخاصّة، ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾[(٣)].

إلّا أنّ من خصائص الملائكة أنّ قدراتهم محدودة ومنحصرة بأداء فعلٍ خاص أو مجموعة أفعالٍ خاصّة، «مِنْهُمْ

---

(١) «العالون» اسم مجموعة من الموجودات أو الملائكة المقرّبة، والتي أشار القرآن الكريم إليها في الآية ٧٥ من سورة ص: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾.

(٢) سورة الأنبياء، الآيتان ٢٦ و٢٧.

(٣) سورة الصافّات، الآية ١٦٤.



سُجُودٌ لَا يَرْكَعُونَ وَرُكُوعٌ لَا يَنْتَصِبُونَ»[١]، وأنّهم لا يفكّرون بالذنب ومخالفة أمر الله تعالى أبدًا.

وفي هذه الحالة يبقى هناك موجودٌ لا زال مكانه فارغًا، وهو ذلك الموجود الذي بإمكانه أن يتلقّى باختياره أعلى مراتب الفيوضات الإلهيّة[٢]. لذلك قال الله تعالى لملائكته: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[٣]. فهذا الموجود له من الاستعداد للتكامل ما يخوّله أن يكون خليفة الله تعالى وأن تظهر منه أفعالٌ إلهيّة وأن يبلغ أعلى الكمالات الوجوديّة. وهذا الإنسان إنّما يتمكّن من تحصيل لياقة هذا الفيض العظيم عندما يحدّد مسيره باختيارٍ وإرادةٍ.

الشرور، أرضيّة اختيار الإنسان

ومن أجل أن يظهرَ هذا الموجود المختار ويتمكّنَ من بلوغ المراتب المتعدّدة للكمال الاختياري في مختلف الساحات، وبعبارة أخرى، من أجل أن يصبحَ الإنسان مظهرًا للاختيار الإلهي، لا بـدّ من أن يُخلقَ في عالمٍ تقتضي طبيعته التغيّرات المختلفة. وتوضيح ذلك أنّ تحقّق الاختيار متوقّفٌ على وجود طريقَين: الأوّل طريقُ صعودٍ وتكاملٍ، والثاني طريقُ سقوطٍ وتسافلٍ، الأوّل طريقُ خيرٍ والثاني طريقُ شرٍ،

---

(١) الشريف الرضي، **نهج البلاغة**، الخطبة ١.

(٢) وإنّ للملائكة أيضًا نوعًا من الاختيار، فعمل الخير الذي يؤدّونه يكون دافعه «الحب»، وهم يلتذّون أيضًا من فعله. وبعبارةٍ أخرى، إنّ للملائكة اختيارًا ولكن لا بمعنى الاختيار بين الخير والشر وترجيح أحدهما على الآخر.

(٣) سورة البقرة، الآية ٣٠.



الأوّل مطلوبٌ والثاني غيرُ مطلوبٍ، وعلى إثر وجود هذَين الطريقَين تتحقّق أرضيّة الامتحان والاختيار الواعي. ومن هنا، فإنّ الله تبارك وتعالى خلق هذا العالم كي يكون موطنًا للتغيّرات المختلفة، كي تمهّد هذه التغيّراتُ أرضيّةَ الاختيارات المتنوّعة والمعقّدة في مختلف الساحات والمجالات، كلّ هذا من أجل أن يتحقّقَ الاختيارُ المطلوب من الإنسان ويصبحَ من خلال سلوك هذا الطريق لائقًا بتلقّي أعلى مراتب الفيض الإلهي والارتـقـاء أعلى من الملائكة. لذا عندما قالت الملائكة لله تعالى: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾[1]؛ أي إنّكم لا تعرفون لماذا يُمكن لهذا الموجود أن يصبح خليفة الله وأنتم لا تقدرون على ذلك، لأنّكم لا تحملون استعداد هذا الأمر.

ومن هُنا يمكن أن يُقال إنّ أعمّ حكمةٍ من وجود الشرور والنقائص والآفّـات والبلاءات في هذا العالم هي تمهيد أرضيّة الاختيار الإنساني، كي يتمكّن البشر بواسطة الاختيار الصحيح من سلوك طريق الحق وتحصيل لياقة تلقّي أعلى مراتب الكمال الوجودي واستحقاق أرفع مراتب الفيض الإلهي. وبناءً عليه، فإنّ وجود هذه الشرور ليس مقصودًا بالذات بل هو مقصودٌ بالعرض، أي إنّ الغرض الأساس هو توفير أرضيّة الاختيار، كي يتمكّن هذا الموجود

(١) سورة البقرة، الآية ٣٠.



صاحب الاستعدادات العظيمة - بإرادته واختياره - من تحصيل أهليّة نيل أعلى مراتب الفيض الإلهي.

وبعبارةٍ أخرى، فإنّ الجواب على السؤال القائل: «لماذا خلقَ اللهُ الحكيمُ هذه الشرور؟» هو أنّ هذه الآلام، والمصاعب، والغصص، والفراقات، والعذابات، والمصائب، وغيرها، ما هي إلّا مقدّمة ووسيلة كي يتمكّن الإنسان بواسطة الاختيار الصحيح من الظفر بأعلى الفيوضات الإلهيّة. وعلى هذا الأساس فإنّ المقصود بالذات هو حصول الكمالات الإنسانيّة، أمّا الشرور فهي مقصودة بالعرض لا أكثر.

عدم كفاية «الغلبة الكميّة للخير على الشر»

وقد قال بعض الحكماء في مقام الإجابة على مسألة الشرور إنّه وإن كان لوجود الشرور في هذا العالم حِكَمًا في الجملة، إلّا أنّه في النهاية ينبغي لتعداد الأمور الخيّرة في العالم أن يفوق تعداد الشرور، ولا ينبغي للشرّ أن يغلب الخير من حيث الكم. ولكن على ما يبدو فإنّ هذا القول ليس بتامٍّ، إذ إنّ مِلاك الغلبة ليس «الغلبة الكميّة» فقط. فحتّى لو لم يكن هناك سوى إنسان واحد فقط - كالوجود المقدّس لنبيّ الله الأعظم ﷺ - قد نال باختياره لياقة تلقّي أعلى مراتب الفيض الوجودي، فمن الحقّ أن يُضحّى بكلّ مَن في العالم كي يظهر مثل هذا الإنسان العظيم. وبناءً عليه، فالمِلاك ليس في الغلبة الكميّة، وليس من اللازم أن يتوفقّ الخير على الشرّ من حيث العدد.



عدّة مسائل فرعيّة حول الشرور

والآن تُطرح في المقام عدّة مسائل فرعيّة، ومن جملة هذه المسائل أنّ مراتب التكامل المتاحة أمام البشر مختلفة، وكذلك استعدادات البشر متفاوتة أيضًا، وساحات التكامل وميادينه كذلك متفاوتة، ومن هنا فإنّ الحكمة تقتضي أن تظهر ساحاتٌ مختلفة من الخير والشر تبعًا لكلّ فعلٍ وانفعالٍ وكلّ تأثيرٍ وتأثّرٍ متقابلَين كي تتوفّر للبشر الظروف المختلفة لتحقّق الكمال الطولي والعرضي. وكذلك بالالتفات إلى اختلاف الاستعدادات الكامنة في وجود الإنسان، وأنّ بإمكانه أن يختار طريقَ الخير لفترةٍ معيّنة ومن ثمّ يُغيّر مسيره ويتّجه نحو الشر أو بالعكس، لا بدّ أن تكون أرضيّة الاختيار الإنساني قابلةً للتغيّر الدائم، بحيث يمكن للإنسان لو عَبَدَ الله لعشرات السنين أن يُبتلى بالمعصية في نهاية المطاف ويسير في طريق الشر، أو بالعكس، فيمكن للإنسان الذي سار في طريق الشرّ لعشرات السنين أن يُغيّر مسيره نحو الخير. وبناءً عليه، ينبغي أن تتوفّر أنواع العوامل وأقسام الأسباب التي بإمكانها أن تجعلَ أرضيّةَ الشرورِ أرضيّةً للخيرات وأرضيّةَ الخيرات أرضيّةً للشرور. ومن هنا، فبالإضافة إلى تلك الشرور الابتدائيّة والأوليّة المتصوّرة لكلّ العالم بشكلٍ عام، لا بدّ أيضًا من وجود شرورٍ خاصّةٍ للأفراد كي تتوفّر أرضيّة امتحانات جديدة.

ومن المسائل الفرعيّة التي تُطرح في هذا الصدد أيضًا أنّ بعض البشر قد يُقدِمون على اختيارات خاطئة على إثر انخداعهم باللذات الدنيويّة وبعد ذلك تعلّقهم بها، إلّا أنّ



أصل إيمانهم ومعرفتهم يبقى محفوظًا في أعماق قلوبهم - حتّى وإن كان باهتًا وضعيفًا -. وفي هذا الحالة يقتضي اللطف الإلهي أن تتوفّر أرضيّة ظهور الكمال والرشد حتّى عند هؤلاء الأفراد. ومن أساليب تحقّق هذا الأمر أن يُبتلى هـؤلاء الأفـراد بالبلاءات أو الشرور كي يفهموا أنّ هذه الشرور هي من لوازم الحياة في هذه الدنيا، فيقلّ تعلّقهم بالدنيا، وربّما يكون هذا الأمر باعثًا على توبتهم من ذنوبهم السابقة أيضًا: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[1].

ومن هذه المسائل الفرعيّة أيضًا أنّه في بعض الأحيان قد لا يُقدم الشخصُ نفسُه على ارتكاب فعلٍ موجبٍ للشر، ولكنّ شرورَ الآخرين تحيق به وتؤثّر عليه - كما يحدث في موارد الشرور الاجتماعيّة -. وعكس هذا الأمر قد يتحقّق في الأمور الخيّرة أيضًا، أي إنّ الشخصَ نفسَه لا يقوم بفعلٍ يستوجب حصوله على النعم، غير أنّ الآخرين يُقدمون على أمورٍ تهيّئ له أرضيّة حصول الاختيار المطلوب. وهذا أيضًا يُعدّ نوعًا من الامتحان والاختبار: ﴿وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[2]. فحتّى الحسنات من الممكن أن تكون عاملًا لامتحان الإنسان: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[3]. وعليه فإنّ أفعالَ إنسانٍ قد تشكّل أرضيّة امتحان آخرين وتحقّق

---

(١) سورة السجدة، الآية ٢١.

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٦٨.

(٣) سورة الأنبياء، الآية ٣٥.



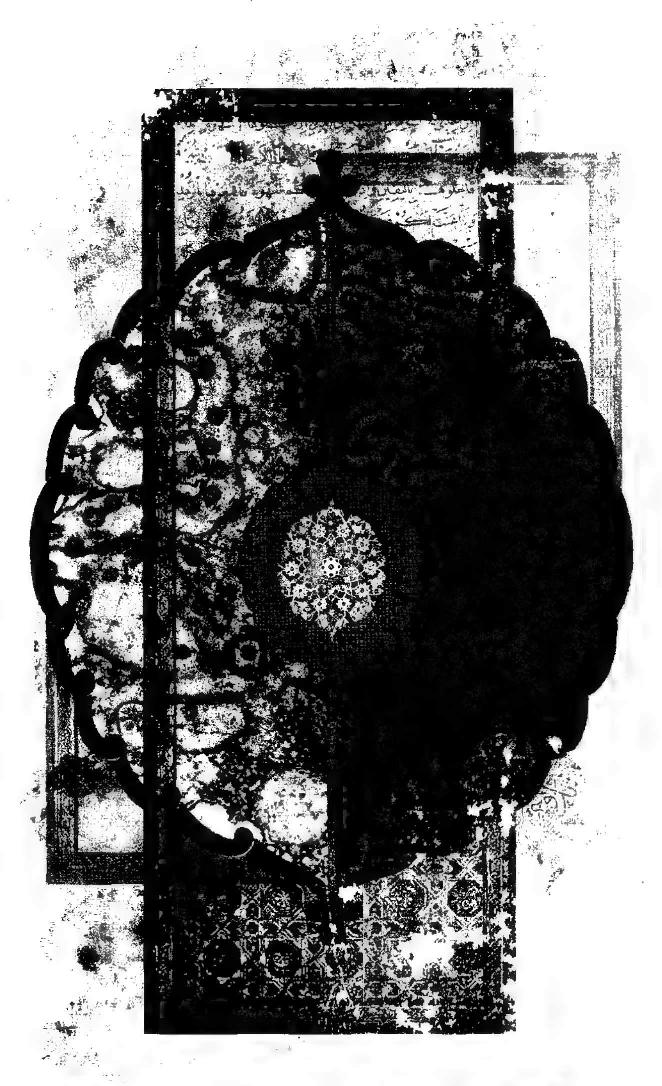
اختياراتهم. كما أنّ أفعال السابقين من الممكن أن تمهّد أرضيّة الأعمال الخيّرة لمن يأتي بعدهم: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾[١].

الشرور لوازم التكامل الاختياري

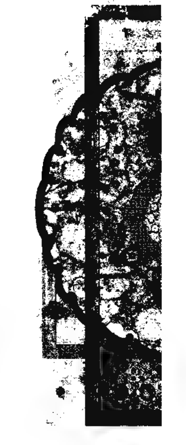
وبناءً عليه، فإنّ الجواب الكلّي على سؤال الشرور هو أنّ شرور هذا العالم - أيّ الأمور الوجوديّة التي تعود بالضرر على غيرها من الموجودات - هي مقصودةٌ بالتبع، بمعنى أنّ الإرادة الإلهيّة الحكيمة تعلّقت أوّلًا وبالذات بظهور موجودٍ كالإنسان باستطاعته أن يبلغ أعلى الكمالات الممكنة في ظلّ اختياره وإرادتـه، ولكنّ تحقّق الاختيار الإنساني يقتضي وجود نظامٍ يكون فيه كِلا الخير والشر، والحسن والقبيح، وفي النتيجة يكون هذا العالم بكلّ ما فيه من شرور مُتعَلَّقًا بالتبع للإرادة الإلهيّة. وبعبارةٍ أخرى، فإنّ إرادة الله تعالى لم تتعلّق استقلالًا وبالأصالة بهذه الشرور من جهة كونها شرورًا، بل إنّ الإرادة الإلهيّة قد تعلّقت بوجود هذه الشرور بالتبع من جهة كونها من لـوازم التكامل الاختياري للإنسان.

---

(١) سورة الكهف، الآية ٨٢.



ثانيًا: البحث العملي في مسألة الشرور



وظيفة الإنسان في مقابل الشرور

بعد تمام الكلام في البُعد النظري لمسألة الشرور تصل النوبة الآن إلى البُعد الثاني وهو البُعد العملي، والذي يهدف البحث فيه إلى الإجابة على السؤال القائل: «ما هي الوضعيّة المناسبة التي ينبغي اتّخاذها في مقابل هذه الشرور وأيّ سلوكٍ اختياري ينبغي القيام به؟».

وإنّ هذا القسم من البحث من الممكن أن يُطرح أحيانًا على هيئة بحثٍ فلسفي وعقلي محض، فيُجاب على تلك الأسئلة عن طريق الأدلّة العقليّة والتوجّه إلى المصالح والمفاسد القابلة لـلإدراك عند العقل، إلّا أنّ التوّجه إلى المعارف الدينيّة في هذا المجال يذهب بنا إلى مستوى أعمق بكثير في هذا البحث.

وإنّنا من أجل الإجابة على هذا السؤال سوف نترك الجنبة النظريّة ونتصدّى للبحث في الجنبة العمليّة. ونظرًا إلى أنّ هذه الشبهات تَطرأ غالبًا عند المتديّنين أو في مقابل المتديّنين، سوف نسعى ضمن الحدّ الميسّر لنا والذي



نوفّق لأدائه لتوضيح الارتباط الحاصل بين هذه الشبهات والمسائل الدينيّة والإرادة الإلهيّة التشريعيّة.

لوازم التكامل الاختياري

قلنا فيما سبق إنّ كمال نظام العالم - أي النظام الذي يشمل جميع المخلوقات - يتوقّف على وجود مخلوقٍ بوسعه أن يختار مسيره بإرادته وأن يبلغ بحُسن اختياره أعلى مقامٍ يُمكن لمخلوقٍ أن يبلغَه. وعندما نقول «يختار بإرادته» فهذا يعني أنّ محور بحثنا هو الجنبة العمليّة، وهذا ما يتوقّفُ على وجود خيرٍ وشرٍّ في الخارج كي يختار هذا الموجود أحدهما بإرادته، سواء كان هذا الاختيار باطنيًّا مرتبطًا بساحة الروح والنفس والجوانح، أو كان خارجيًّا مرتبطًا بساحة الجوارح. وعندما يُطرح البحث حول الاختيار والإرادة تُطرح مسألة «الفعل» بمعناه العام. وتوضيح ذلك أنّ كلّ أمرٍ يوجب حرمان الإنسان من أصل الكمال أو من درجاتٍ منه يكون متّصفًا بالشرّ، وبالعكس فإنّ كلّ أمرٍ يوجب نيل الإنسان لأصل الكمال أو بلوغ درجاته العالية يكون متّصفًا بالخير، وكلٌّ من هذَين القسمَين يُسمّى «فعلًا اختياريًّا» بالمعنى العام، وكلّ قسمٍ ينقسم بدوره إلى قسمَين «جوارحي» و«جوانحي».

هذا وإنّه من أجل أن تتوفّر لهذا الموجود أرضيّة واسعة للاختيار وتغيير المسار، لا بدّ أن يكون وجوده تدريجيًّا وأن تتهيّأ له على الدوام ظروف وشرائط جديدة للاختيار وتحقُّق الترقّي والتنزّل في مختلف ساحات حياته،



وهو الأمر الذي لا يمكن أن يحصل إلّا في عالم الطبيعة هذا. ومن جهةٍ أخرى فإنّ تحقُّق الاختيار الواعي يتوقّف على معرفة الكمال والنقص والحُسن والقُبح، وهذا بالطبع لا يتحقّق في أوّل مراحل حياة الإنسان، كتلك المرحلة التي يكون فيها طفلًا رضيعًا، بل لا بدّ للإنسان أن ينمو تدريجيًّا حتّى يصل إلى مرحلة العقل، وهذه المرحلة بدورها ذات مراتب متعدّدة يسلكها الإنسان بالتدريج حتّى يصل من مرحلة القوّة إلى مرحلة الفعليّة. ومن الواضح أنّ التكامل العقلي ليس في درجةٍ واحدةٍ عند جميع البشر، فإذا ألقينا نظرةً إلى المجتمع والتاريخ نجد اختلافًا كبيرًا بين الأفراد من حيث الاستعدادات الذاتيّة للتعقّل وكذلك من حيث سرعة التكامل. وإنّ هذه المراتب في غاية الكثرة إلى درجة أنّها غير قابلةٍ للإحصاء، ولا يمكن تقسيمها إلّا بالاستعانة بالمفاهيم الكليّة والمبهمة.

ضرورة الوحي في تشخيص طريق التكامل

إنّ الحكمة الإلهيّة تقتضي أنّه إذا أمكن للإنسان أن يعرف الخير والشرّ بشكلٍ أكبر وأفضل بواسطة طريقٍ غير العقل، فإنّه لا بدّ من فتح هذا الطريق أمامه. وهنا يتّضح دور الدين في تكامل الإنسان، فإنّ الله تعالى - بالإضافة إلى المعارف التي منحها للإنسان عن طريق العقل - تكفّل بأن يبيّن له حقائق أرفع ومعارف أعلى من تلك المعارف العاديّة والعقليّة، وأن يوضّح له عن طريق الوحي الأعمالَ الموجبة لكماله وسعادته وتلك الموجبة لعذابه وشقائه.



وهنا تحديدًا تُطرح موضوعات من قبيل «الشريعة» و«الأحكام الشرعيّة» و«الإرادة الإلهيّة التشريعيّة».

هذا وإنّ الشريعة الإلهيّة، بالإضافة إلى تقسيمها الأعمال إلى مطلوبة وغير مطلوبة، قد بيّنت للمطلوبيّة وعدم المطلوبيّة مراتب متعدّدة، وأبدت اهتمامًا خاصًّا بالحدود والضرورات وحالات التزاحم والظروف المتغيّرة. فإنّ الله تعالى قد لاحظَ مثلًا مرتبةً من مراتب المطلوبيّة، والتي بدونها لا يمكن أن تتحقّق الحركة التكامليّة للإنسان ويكون تركها موجبًا لحرمانه من كمالٍ أساسي، فأمر بهذه المرتبة على نحو الإلـزام وباتت تُسمّى في لسان الشرع بـ«الواجبات». وقد جعل لهذه الواجبات أيضًا مراتب متعدّدة ينبغي تقديم الأهمّ منها في موارد التزاحم. وفي مقابل الواجبات تقع المحرّمات بمراتبها المختلفة. وإذا ما أراد الإنسان أن يطوي مسيره التكاملي فلا بدّ عليه أن يراعي الحدّ الأدنى من الواجبات والمحرّمات. وبالطبع إنّ هذه المراتب مطروحة أيضًا في العقليّات إلّا أنّها في الشرع فُكّكت بشكلٍ كاملٍ ووُضعت في اختيار عموم الناس.

دور الإنذار والتبشير إلى جانب الهداية الشريعيّة

إنّ الهداية الإلهيّة التشريعيّة التي تتحقّق عن طريق إرسال الرسل وإنزال الكتب هي في الأصل ذات جنبة تعليميّة، فكما أنّ العقل يشخّص الخير والشر، فإنّ الوحي أيضًا يحدّد الخير والشر نيابةً عن العقل. ولكن حتّى هذا النحو من معرفة الخير والشر لا يكفي لوحده من أجل نيل الإنسان



الحدّ الأعلى من النِعَم المعنويّة والسعادة الإلهيّة. ومن هنا فإنّ التدبير الإلهي الحكيم يقتضي أنّه في هذا العالم المليء بالتحوّلات والتزاحمات والتأثيرات والتأثّرات المتقابلة، لا بدّ من تمهيد الأرضيّة المناسبة كي لا ينسى الإنسان ما عرفه بواسطة العقل أو الشرع، وكي تقوى الدافعيّة في داخله تجاه أداء الأفعال الخيّرة واجتناب عوامل الشر. ومن هنا كانت دعوة الأنبياء عليهم السلام على الدوام مقارنةً للإنذار والتبشير. يقول الله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[١]. أي إنّ وظيفة الأنبياء الإلهيّين لم تكن مقتصرةً على أصل الهداية وإرشاد الناس إلى طريقَي الخير والشر والحق والباطل، بل كان عليهم أيضًا حثّ الناس وتشجيعهم على أداء الأعمال المطلوبة من خلال تذكيرهم بالآثار الحسنة في الدنيا والآخرة التي تترتّب على اختيارهم للأفعال التي تُرضي الله تعالى، وفي المقابل كان عليهم ردع الناس عن التلوّث بالمعاصي وارتكاب الذنوب الموجبة للشقاء الدنيوي والأخروي من خلال تذكريهم بالآثار السيّئة للكفر والعصيان والعذابات الأخرويّة والدنيويّة التي تترتّب عليها.

والآن بعد الفراغ من البحث النظري وملاحظة حلقة الوصل بين المباحث النظريّة والمباحث العمليّة، تصل النوبة إلى الإجابة على الأسئلة المرتبطة بتحديد الوظيفة

---

(١) سورة النساء، الآية ١٦٥.



في مقابل ظواهر الخير والشر، سواء تلك الظواهر الابتدائيّة أو تلك التي تكون نتيجةً لأفعال الإنسان نفسه أو التي تتحقّق بسبب ما يصدر عن الآخرين أو بسبب أفعال الماضين. وهذا مع التأكيد على ما ذكرناه سابقًا من أنّ جميع هذه الشرور المتحقّقة في النظام الأحسن قد تعلّقت بها الإرادة الإلهيّة بالتبع أو بالعرض ولها ارتباط وثيق بالتكامل الإنساني الاختياري.

العبادة والعبوديّة، العامل الأساسي لتكامل الإنسان

إنّ العامل الأساسي في تكامل الإنسان، والـذي يوجب استحقاقه لأعلى مراتب الرحمة والفيض الإلهي هو ذلك الأمر الذي يُسمّى في لسان الشرع بـ«العبادة»، ومعناه أن يُدرك الإنسان أنّه لا يملك من نفسه شيئًا ولا يمكن له أن يحصل من نفسه على شيء وأنّ كلّ خيرٍ يصل إليه هو من الله سبحانه وتعالى. وهذه العبادة في الواقع هي حقيقةٌ قابلة للتحقّق من خلال سلوك مسيرٍ طويلٍ للغاية يسلكه الإنسان، وتحوي في طيّاتها طيفًا وسيعًا من المراحل الطوليّة والعرضيّة.

وإنّ من جملة لوازم هذه العبوديّة أن يترك الإنسان كلّ ما يراه العقل موجبًا لتنزّله وسقوطه، وأن يؤدّي كلّ ما يراه العقل موجبًا لترقّيه وصعوده. وكذلك عندما يُدرك بواسطة الوحي أنّ أمرًا ما يوجب ترقّيه وتكامله ينبغي عليه أن يميل نحوه ويحافظ عليه، وبالعكس أيضًا عندما يُدرك بواسطة الوحي أنّ فعلًا ما يوجب خسران النعمة وزوال أرضيّة

التكامل فعليه أن يتركه. وفيما يرتبط بالنعم التي وضعها الله تعالى في أجسامنا وأرواحنا، كالعين والأذن واليد والقدم والعقل والشعور والميول الفطريّة، وكذلك النعم التي نكتسبها بسعينا وعملنا، كالعلم والإيمان، لا بدّ علينا أوّلًا أن نسعى في أداء شكرها، وثانيًا أن نحافظ على هذه المعرفة والإدراك كي لا نخسره، وثالثًا أن نجتهد في الالتزام باللوازم العمليّة لهذه المعرفة. إذ لو قصّرنا في مرحلةٍ من هذه المراحل نكون في الواقع قد خطونا خطوةً على طريق التنزّل والتسافل.

ومن جهةٍ أخرى، عندما نلتفت إلى أنّ الإرادة الإلهيّة لا تختصّ بنا فقط وأنّ الله تعالى يريد الكمال لجميع الذين يمكنهم أن يتكاملوا باختيارهم، لذا فأيّ نعمةٍ تُمنح لأيّ شخصٍ لا يحقّ لنا أن نضيّعها عليه فضلًا عن سلبها منه، وعندما نلفت إلى أنّ نعم الآخرين قد تكون في المستقبل منشأ كمالٍ لنا، كأن نستفيد مثلًا من مال شخصٍ أو علمه، عندها نجد أنّنا غارقون في النعمة تلو النعمة.

ومن هنا فـإنّ حفظ أصل النعمة، وتأدية شكرها، وحُسن الاستفادة منها، والسعي في رشدها، كلّ هذه هي أعمال خيرٍ تُعدّ وظيفةً عمليّةً ينبغي أن نؤدّيها، وكلّ فعلٍ يكون مخالفًا لهذه الأمور يُعتبر شرًّا ينبغي اجتنابه. وكما أنّ الشرور الابتدائيّة وغير الاختياريّة من شأنها أن تُمهّد الأرضيّة لتحقّق الاختيار الحسن أو القبيح من الإنسان، فكذلك الشرور الاختياريّة أيضًا يُمكن أن تُمهدّ أرضيّة هذه

الاختيارات. وفيما يرتبط بهذا الموضوع ثمّة مسائل كثيرة لم أجدها مصنّفة في مجموعة كاملة ومنظّمة - ربّما بسبب ضعف مطالعاتي وقلّتها -، ولكن في جميع الأحوال فإنّ الآيات القرآنيّة زاخرة بالكثير من المباحث الجديرة بالتأمّل والتعلّم فيما يرتبط بهذه المسائل، ولكنّنا للأسف لا نستفيد كما ينبغي من هذه النعم القرآنيّة بل نمهدّ أرضيّة حرماننا والآخرين منها.

خيريّة الكثير من الشرور

إنّ من جملة الألطاف التي لا يمكن لعقولنا أن تدركها، والتي بيّنها لنا الله تعالى، هي أنّ بعض الأمور التي تُعتبر في الظاهر شرورًا وأمورًا سيّئة، هي في الواقع أمورٌ تمهّد الأرضيّةً لظهور كمالات لاحقة وهي في الحقيقة نِعمٌ ينبغي الاستفادة منها. يقول الله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾[1].

فالله تعالى في نفس الوقت الـذي كان يُرسل فيه الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، كـان يُنزل على الناس أشكال البلاءات كي يتوجّهوا إليه ويطلبوا منه رفع هذه البلاءات، الأمر الذي يساعد على تمهيد أرضيّة أفضل لتقبّل الناس دعوةَ الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. وقد ورد هذا المضمون في آيتين قرآنيّتين - في سورة الأنعام وسورة الأعراف - حيث يقول الله تعالى:

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢١٦.



﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾[1]، و﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾[2].

وتوضيح ذلك أنّ الإنسان في بداية ظهوره يكون في مستوًى واحدٍ مع الحيوانات، ومن ثمّ يقطع تدريجيًّا مراحلَ من التكامل إلى أن يُصبح مستعدًّا لبلوغ الكمالات الإنسانيّة. وبالطبع تكون الميول الحيوانيّة والتعلّقات باللذات الماديّة حينها فعليّةً في وجود الإنسان. هذا والحال أنّ إرضاء هذه الرغبات موجبٌ لتعلّق الإنسان بها أكثر، الأمر الذي يؤدّي إلى أن يصبح أغلب البشر في معرض عوامل تُوجب تنزّلهم وتسافلهم إلى حدّ الحيوانيّة، أو لا أقل تبعث على عدم رشد عوامل الترقّي والتكامل في وجودهم. هذا وإنّ التعلّق بالدنيا ولذّاتها قد يبلغ عند الإنسان أحيانًا حدَّ أن لا يلتفت كما ينبغي إلى إدراكاته الفطريّة والعقليّة بل وحتّى إلى تعاليم الأنبياء عليهم السلام، بل وقد يؤدّي ذلك إلى إنكاره لهذه الأمـور. ولذلك فإنّ الله تعالى حينما كان يبعث نبيًّا من أنبيائه عليهم السلام، كان بالإضافة إلى الإنذار والتبشير يُرسل للبشر تحذيرًا عمليًّا أيضًا لعلّهم يلتفتون بسببه إلى تلك الإدراكات والتعاليم: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾[3].

---

(١) سورة الأنعام، الآية ٤٢.

(٢) سورة الأعراف، الآية ٩٤.

(٣) سورة الأعراف، الآية ٩٤.

ردّات الفعل المتفاوتة في مقابل البلاءات التحذيريّة

في مقابل هذه التحذيرات الإلهيّة يُبدي البشر ردّات فعلٍ متفاوتة، ومن هنا فإنّ الله تعالى يُمهلهم كي يزداد تنبّههم تدريجيًّا فتُهيّأ لهم أرضيّةٌ أفضل للرجوع إلى الله والتوبة إليه والتضرّع له، الأمر الذي يبعث على تقرّبهم منه تعالى، بمعنى أنّهم يُدركون بشكلٍ أكبر نقصهم وفقرهم إلى الله، وبشكلٍ عام فإنّ أرضيّة العبوديّة تُصبح مُعبّدةً أمامهم بنحوٍ أفضل.

وقد جاء في بعض الآيات القرآنيّة تعبير: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾[1]، ومعناه أنّ هذه البلاءات التي أنزلناها عليهم محبّةً بهم ومن أجل أن تُمهَّد أرضيّة تقرّبهم وتكاملهم، لا تترك أثرًا عند كثيرٍ منهم بل قد يبلغ الأمر بهم حدّ العناد والتعلّق أكثر بأمور الدنيا والابتعاد عن الله تعالى. ومن ثمّ يُبيّن الله علّة هذا الأمر فيقول: ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[2]. فعلّة عدم تضرّعهم وعدم رجوعهم إلى الله عند رؤية هذه البلاءات هي أنّ قلوبهم قست وباتت على حدّ تعبير القرآن الكريم ﴿كَٱلْحِجَارَةِ﴾[3] فلا ينفذ كلام الحقّ فيها، حتّى وصل بهم الأمر إلى أن يضعوا أصابعهم في أذانهم كي لا يسمعوا كلام الأنبياء عليهم السلام! يقول الله تعالى في سورة يس المباركة: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ

---

(١) سورة الأنعام، الآية ٤٣.

(٢) سورة الأنعام، الآية ٤٣.

(٣) سورة البقرة، الآية ٧٤.



إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[1]. وعندما تبلغ الأمور مثل هذا الحدّ لا يعود هناك مجالٌ لاستحقاق المدد والعون الإلهيّين.

وأحيانًا قد تذهب الأمور إلى أبعد من ذلك، فلا تبقى المسألة ضمن حدود خسارة هؤلاء لاستحقاق المراتب المتدنيّة من السعادة، بل إنّهم يصبحون أيضًا عامل ضلال وشقاء للآخرين. وتنقل الآيات القرآنيّة عن نبيّ الله نوح عليه السلام قوله: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[2]. أي إنّ النبي نوح عليه السلام يُخاطب الله قائلًا: يا الله إنّي دعوت قومي ما يُقارب الألف عام واعتمدت في دعوتي لهم أشكال الإنذار والتبشير، ولكنّ هذا الأمر ليس فقط لم يجدِ نفعًا معهم، بل إنّهم باتوا سببًا في ضلال الآخرين ولم يعد هناك أيّ أملٍ بأن يظهر من نسلهم إنسان صالح: ﴿وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[3]. ففي هذه الحالة يحلّ موعد نزول العذاب العام والجماعي. وكما ذكرنا سابقًا، فإنّ أشكال العذاب هذه تُشكّل قسمًا من شرور هذا العالم.

---

(١) سورة يس، الآيات ٨ إلى ١٠.

(٢) سورة نوح، الآيتان ٢٦ و٢٧.

(٣) سورة نوح، الآية ٢٧.



ولكن في النقطة المقابلة لهؤلاء المعاندين، ثمّة أناسٌ تكون بعض مراتب البلاءات والصعوبات موجبةً لاستيقاظهم وتنبّههم، أو على الأقلّ موجبةً للتقليل من جنوحهم نحو جهة الذنوب والعصيان والكفر والإلحاد. يقول الله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[1].

إذًا، بعد أن عرفنا أنّ التدبيرات الإلهيّة في هذا العالم تشمل أيضًا هذه الحوادث المريرة، وأنّ هذه الشرور هي في الواقع جزءٌ من تدبيرات الله تعالى، وأنّها بمعنًى من المعاني جزءٌ من النظام الأحسن - ولكن بالتبع والعرض لا بالأصالة - حان وقت طَرح هذا السؤال وهو: «ما هي وظيفة الإنسان المؤمن العادي - أي الذي لم يثبت في حقّه ذلك النصيب من الشقاء أو السعادة - في مقابل خيرات العالم ونِعَمه وكذلك في مقابل شروره وبلاءاته وصعابه؟

وظيفتنا في مقابل النعم الإلهيّة

بالالتفات إلى النكات التي تقدّم ذكرها اتّضح أنّ جميع نِعَم هذا العالم هي عطايا إلهيّة، سواءٌ تلك النعم الموجودة في بدن الإنسان أو في روحه أو في عائلته أو في محيط عيشه أو في كلّ نظام الوجود. وإنّ عبوديّتنا لله تعالى تقتضي أن لا نتصرّف في هذه النِعَم إلّا بإذنٍ منه تعالى، وأن لا نستفيد منها سوى فيما يحقّق لنا السعادة والتكامل، فلا يحقّ لنا أن

---

(١) سورة السجدة، الآية ٢١.

نُسبّب زوال هذه النعم ولا أن نسيء الاستفادة منها ولا أن نحول دون استفادة الآخرين منها، لأنّ جميع هذه النِعَم قد وُجدت على أساس الحكمة الإلهيّة وهي علامة وآية على لطف الله تعالى ورحمته، فإن ارتكب أحدُنا أيّ فعلٍ من شأنه أن يُضعف هذه النعم أو يُسبّب زوالها، فإنّه يتحمّل مسؤوليّة ما تسبّب به.

ومن النكات الجديرة بالالتفات أيضًا أنّ الاستفادة المطلوبة من النعم الإلهيّة، والتي تُعدّ من مصاديق «شكر النعمة»، من شأنها أن توجب ازدياد النعم وأن تُضاعَف بركتها، وفي المقابل فإنّ سوء الاستفادة من هذه النعم، والذي يُعدّ من مصاديق «كفران النعمة»، سوف يؤدّي إلى الحرمان منها ونيل العذاب الشديد. يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[1].

وبناءً عليه، فإنّ الأصل في تعامل الإنسان مع النعم الإلهيّة في هذا العالم هو أن يعرفها جيّدًا، وأن يؤدّي حقّ شكرها، وأن يُحسن الاستفادة منها، وأن لا يتسبّب في تضييعها على نفسه أو على الآخرين. وفي المقابل ينبغي على الإنسان أيضًا أن يحول دون ظهور عوامل الشرّ والفساد - كالأوبئة والأمراض - وأن يُشكّل مانعًا أمام شيوعها وانتشارها.

---

(١) سورة إبراهيم، الآية ٧.

تكليفنا في مقابل الشرور، الرضا أم السخط!؟

هذا هو الجانب الأوّل من القضيّة وهو ما يرتبط بالنعم الإلهيّة وعدم جواز تضييعها وتفويتها، سواءٌ أكانت نعمًا لنا أو لغيرنا. أمّا الجانب الآخر من القضيّة فهو ما يرتبط بردّة الفعل القلبيّة والجوانحيّة في مقابل الشرور والآفّات والمصاعب والبلاءات، أو حتّى في مقابل ذنوب الآخرين وأخطائهم. فهل ينبغي أن نرضى في داخلنا عن هذه الأمور أم ينبغي أن نسخط؟ وكيف يمكن لنا أن نجمع بين الخوف والتوجّس من الآلام والمصائب من جهة والرضا بالتقدير الإلهي من جهة أخرى.

الرابطة بين الله والعالم

إنّ الإجابة على هـذا السؤال تختلف باختلاف مراتب المعرفة عند البشر وطبيعة الرؤية التي يحملونها حول الله والعالم، وتختلف أيضًا باختلاف مراتب الكمال الروحي والمعنوي الذي يتمتّع به كلّ إنسان. ومن أجل توضيح ذلك نقول:

إنّ بعض المتديّنين ينسبون إلى الله تعالى أصلَ وجود هذا العالم ومبادئَ الأمور فقط. أمّا الآثار الطبيعيّة والإنسانيّة فيرون أنّها معلولات للفواعل الماديّة والإنسانيّة ولا يرون لله تعالى تأثيرًا حقيقيًّا في ظهورها، بل إنّ نسبتها إلى الله باعتقادهم إنّما تتمّ بلحاظ كونه تعالى خالق هذه الفواعل، أو على أكثر تقدير يقولون بنسبتها إلى الله هي



من حيث أنّه يمنح الإذن التكويني في تأثير هذه الفواعل ولا يمنع من تأثيرها. ومن الممكن أن يُقال بـأنّ أكثر المعتقدين بالله الواحد لا يرون لله تعالى تأثيرًا في ظهور الحوادث الطبيعيّة والأفعال الاختياريّة للجنّ والإنس، بل يعتقدون بنوعٍ من «التفويض» في هذه الأمور. فبالنسبة لهؤلاء الأشخاص من الطبيعي جدًّا أن لا يرضى الإنسان عن الحوادث المريرة والقاسية، ويؤوّلون التقدير الإلهي بـ«التقدير العلمي» وما شابهه بحيث لا يلزم من ذلك وجود تأثير إلهيّ في وجود هذه الظواهر.

وفي مقابل هذه الفئة من المعتقدين بالله تعالى ثمّة فئة أخرى تعتقد بنوعٍ من «الجبر» وتقبل تأثير سائر الفواعل فقط ضمن حدّ «الوسيلة» لا أكثر.

وبين هذَين الاتّجاهَين التفريطي والإفراطي هناك نظريّة مُعتدلة وفي نفس الوقت ذات مراتب متعدّدة، وهي ما عُبّر عنها في لسان الروايات الشريفة بـ«الأمر بين الأمرَين». وهذه النظريّة تقول بالتأثير الحقيقي للإرادة الإلهيّة في جميع الظواهر، وكذلك تقول بتأثير الفواعل المتعدّدة للمخلوقات في طول بعضها البعض، وكذلك ترى تأثيرًا للفواعل المُعدّة وللشرائط والموانع.

وإنّ الإدراك الكامل لهذه النظريّة يحتاج لقوّةٍ في العقل وعمقٍ في التفكير، ويتطلّب أيضًا هدايةً وتوفيقًا إلهيَّين. وعلى ضوء هذه النظريّة يُمكن تفسير «التوحيد الأفعالي» تفسيرًا صحيحًا يكون موافقًا للآيات القرآنيّة



الكثيرة والـروايـات الشريفة، وأيضًا لما يدّعيه العرفاء الحقيقيّون وأهل الكشف والشهود.

وفي الحقيقة إنّ محور هذه الاختلافات في وجهات النظر فيما يرتبط بالتفاعل مع الشرور هو المعرفة والرؤية التي يحملها كلّ إنسان تجاه الله تعالى والرابطة الوجوديّة بينه وبين مخلوقاته وخاصّةً الفواعل المختارة.

تأثير مراتب كمال الإنسان في حالاته القلبيّة

والفئة الأخرى من عوامل هذه الاختلافات ترتبط باختلاف مراتب كمال النفس واستعداداتها. وتوضيح ذلك أنّ روح الإنسان - كما أشرنا سابقًا - تكون في البداية في مستوًى واحد مع روح الحيوانات، وتكون سعادتها ورضاها وفرحها مُتعلّقًا بشكلٍ كامل باللذات الماديّة والحيوانيّة سريعة الـزوال. ولكن مع رشد القوى العقليّة عند الإنسان تتّسع تدريجيًّا دائـرة فرحه ورضـاه، بحيث تُصبح بعض الآلام والمتاعب أيضًا موردًا لرضاه كتناول الدواء المرّ من أجل الشفاء من المرض، بل وقد يرضى حتّى عن قطع بعض أعضاء بدنه من أجل أن يُكمل حياته. وإنّ هذا الرضا قد يشتدّ أكثر إلى درجة أن يُصيّر تحمّل الآلام والأوجاع أمرًا سهلًا فترى الإنسان مستعدًّا لدفع مبالغ طائلة لشراء دواءٍ مرّ أو الخضوع لعمليّة جراحيّة لقطع عضوٍ معيوبٍ من أعضاء بدنه.

وإنّ الإيمان بالآخرة والحياة الأبديّة هو في حدّ ذاته عاملٌ يرفع مرتبة كمال النفس ويوفّر استعدادًا أكبر لتحمّل الآلام والمصاعب والشدائد من أجل النجاة من العذاب الأبدي ونيل نعم الجنّة الأبديّة. وأحيانًا تؤثّر بعض التجليّات الإلهيّة وإدراك الرضوان الإلهي بشكلٍ عميقٍ على المؤمن الذي يُحبّه الله، بحيث يُصبح تحمّل أيّ مصيبةٍ يسيرًا جدًّا عليه، بل أمرًا مطلوبًا بمعنًى من المعاني، كما نُقل عن أحوال الأنبياء والأولياء الإلهيّين عليهم السلام، وخاصّةً سيّد الشهداء عليه السلام حيث نُقل أنّه في يوم عاشوراء وفي آخر لحظات عمره الشريف كان لسانه يترنّم بقوله:

تَـرَكْـتُ الخَلْقَ طُـرًّا في هَوَاكَا
وَأَيْـتَـمْـتُ الـعِـيَـالَ لِكَي أَرَاكَـا

والحاصل أنّ روح الإنسان تكتسب سطوحًا ومراتب جديدة على إثر التكامل المعنوي، وفي النتيجة تستطيع في آن واحد أن تجمع بين الإحساس المادّي وإدراك ألم البدن من جهة وحالةٍ أو مجموعة حالات روحيّة سامية من جهةٍ أخرى - أعمّ من كونها حالات إيجابيّة كالفرح أو سلبيّة كالغم -. وهذا بخلاف ما إذا كانت روح الإنسان متمركزةً في سطحٍ واحدٍ فقط دون أيّ التفاتٍ إلى سائر السطوح، ففي هذه الصورة لا يمكن للروح أن تُدرك سوى الحالة التي تتناسب مع السطح المتمركزة فيه.

الوظيفة الأولى، أداء التكاليف الشرعيّة

بناءً على ما مرّ، ينبغي علينا أوّلًا أن نسعى في مراعاة التكاليف العمليّة والواجبات والمحرّمات الشرعيّة وأن لا نشغل بالنا بالتقديرات الإلهيّة. وإنّ من أبرز النماذج على هذا الأمر الإمام الخميني ﭬ، فعلى طول سنوات المواجهة الطويلة كانت هذه الصفة تزداد ظهورًا في الإمام يومًا بعد يوم، فلم تؤثّر الحوادث المريرة ولا الحلوة في إرادته أبدًا، بل كان كلّ همّه أن يرى ما هي وظيفته الحاليّة وأن يعمل على وفقها.

وإنّ من جملة هذه الوظائف الشرعيّة الملقاة على عاتقنا حفظ النِعَم الإلهيّة، فلا يحقّ لنا أن نقول: «الآن وقد تفشّى وباء كورونا وحلّت المصائب والنوائب، فلا فرق بين ما إذا كانت هذه المصائب واحدة أو مئة». لا بل ينبغي علينا أن نؤدّي وظيفتنا على كلّ حال، فإن بلغت حدّ الوجوب عَمِلنا بمُقتضى الوجوب، وإن بلغت حدّ الاستحباب عَمِلنا بمُقتضى الاستحباب.

الرضا بالتقديرات الإلهيّة

هذه الوظائف التي ذكرناها مُرتبطة بالعمل الجوارحي، ولكن لا بدّ أيضًا من أن نسعى كي نحصّل رضًا قلبيًّا تجاه التقديرات الإلهيّة وأن لا يكون لدينا أيّ شكوى أو سخط تجاه هذه التقديرات، حتّى وإن عادت علينا أو على الآخرين بالأذى أو كانت موجبةً للمصائب والبلاءات. وإنّ



هذه الساحة هي أصعب ساحات العبوديّة، فمن جهةٍ أولى ينبغي أن نهتمّ بأداء تكليفنا، ومن جهةٍ أخرى ينبغي أن نحصّل الرضا القلبي تجاه الحوادث التي تقع وفق التقدير الإلهي. وبالطبع لا يملك جميع الأفراد القدرة على الجمع بين تأدية التكاليف وتحمّل الآلام الماديّة الدنيويّة والرضا القلبي عن المقدّرات الإلهيّة بدرجاتها المختلفة. حتّى إنّ استقبال المصائب الثقيلة هو مقامٌ يُعدّ من مختصّات أولئك الذين بلغوا درجات الإيمان العالية.

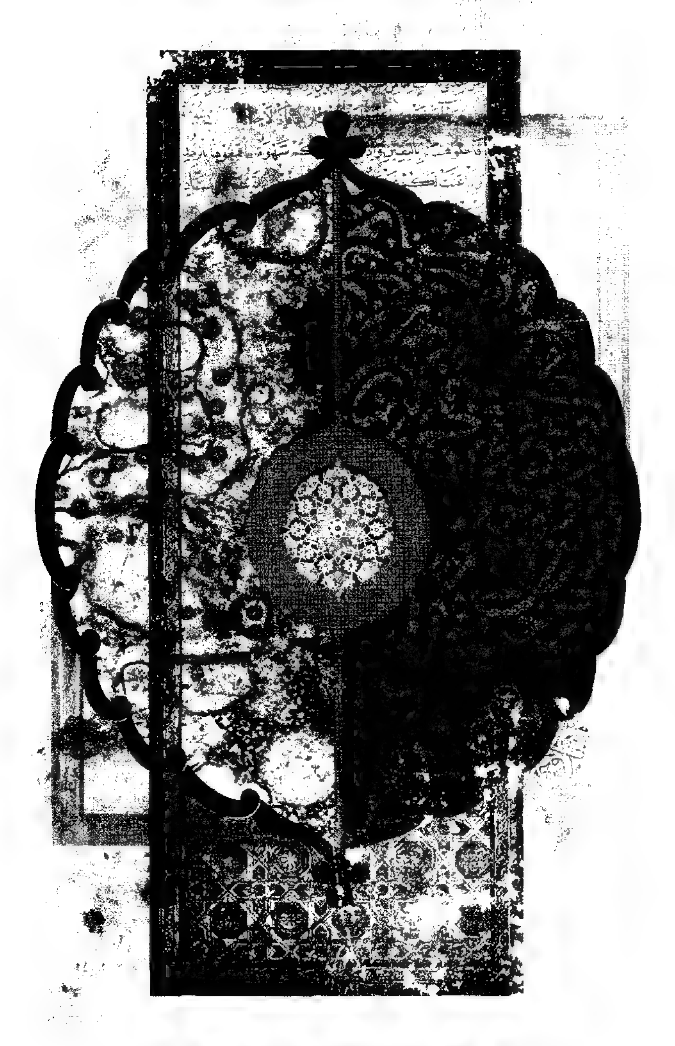
التكاليف المختلفة في الظروف المختلفة

بالطبع ينبغي علينا أن نسعى قدر الإمكان من أجل أن نعرف تكاليفنا بشكلٍ أفضل، وأن لا نقع - لا سمح الله - في فخّ تأثير هوى النفس وحبّ المقام والمنصب وجلب رضا الناس أثناء تشخيصنا للتكليف. وأثناء تأدية وظائفنا الشخصيّة، ينبغي أن لا نقع أبـدًا تحت تأثير عواطفنا وأحاسيسنا المانعة من تأدية التكليف، بل علينا أن نمرّن أنفسنا على أنّ نكون دومًا حاكمين على مشاعرنا وغالبين لها. أمّا تجاه غيرنا من الناس فلا بدّ علينا أن نتحلّى بعواطف إنسانيّة رحيمة، بل وأن نذرف الدموع أحيانًا لما يلاقونه من مصائب وآلام: «إن القلب ليحزن وإن العين لتدمع ولا نقول إلا ما يرضي الله»[1].

---

(١) مضمون كلامٍ للنبي الأكرم ﷺ عند وفاة ولده إبراهيم في مقام الإجابة على اعتراض بعض أصحابه على بكائه حزنًا على فراق ولده.

وإنّ من جملة الوظائف التي ينبغي علينا القيام بها حفظُ النِعَم الإلهيّة التي مُنحت لنا وللآخرين، والحيلولة دون انتشار المفاسد في مدننا وعوائلنا ومجتمعنا. وثمّة أيضًا تكاليف مختلفة ينبغي أن نعرفها جيدًّا وأن نؤدّيها بحكمةٍ وعقلانيّة بعيدًا عن الإفـراط والتفريط ووساوس الجهالة، وأن نكون راضين في قبال الحوادث التي تقع وفق التقدير الإلهي. وخاصّةً إذا التفتنا إلى أنّ الإرادة الإلهيّة الحكيمة قد تعلّقت بهذه الحوادث كي تُمهّد أرضيّة نيل فيوضاتٍ أكثر وبلوغ مراتب أرفع من الكمال والرحمة والقرب الإلهي. وبعبارةٍ أخرى، بما أنّ هذه الحوادث الجزئيّة هي جزءٌ من النظام الأحسن والتدبير الإلهي الحكيم في العالم، فليس فقط لا ينبغي أن نسخط وننزعج، بل ينبغي أن نبتهج ونفرح. وهذا أمرٌ في غاية الصعوبة، غير أنّه يُصبح سهلًا يسيرًا بفضل الدعاء والتوكّل والتضرّع إلى الله تعالى والتوسّل بأوليائه عليهم السلام.



ثالثًا: أسئلة وأجوبة



السؤال الأوّل: وصلنا في سلسلة البحوث التي طرحتموها إلى أنّ الشرور والخيرات في هذا العالم مصاحبة بعضها لبعض، بمعنى أنّ النظام الأحسن والحكمة الإلهيّة تقتضي أن يُخلق العالم على هذا النحو، إلّا أنّ الشرور ليست مقصودةً بالأصالة بل مقصودةٌ بالتبع كي تكون أرضيّةً لتكامل الإنسان حين يستفيد منها بواسطة اختياره الواعي فيما يحقّق له الكمال والترقّي. وإنّ هذا الاختيار الواعي يتوقّف على معرفة أنواع الخير والشر وطريق الوصول إليها. ومن الممكن للإنسان أن يُدرك بواسطة عقله كليّات هذه المسائل، ولكن في كثيرٍ من الموارد لا تكون هداية العقل العادي كافيةً في تشخيص مصاديق الخير والشر، وهذا الأمر في حدّ ذاته دليلٌ على الحاجة إلى الوحي الإلهي وتشريع الأحكام الدينيّة.

والآن يُطرح السؤال التالي: بالالتفات إلى اختلاف مراتب البشر من حيث الاستفادة من العقل والوصول إلى مُحتوى الوحي، كيف يُمكن لجميع البشر أن يحصلوا على



المعرفة الصحيحة بجميع الوظائف العقليّة والتكاليف الشرعيّة كي تُمهَّد لهم أرضيّة الاختيار الصحيح في كلّ موردٍ من الموارد؟

جواب الشيخ حفظه الله: بالالتفات إلى المطالب التي ذكرناها سابقًا تُطرح هذه المسألة وهي أنّه إذا كان لا بدّ لنا من معرفة جهات الخير والشرّ في الأشياء وتنظيم أفعالنا بما يؤمّن الوصول إلى الخيرات والأمن من الشرور، فينبغي على كلّ شخصٍ أن يُحدّد المصالح والمفاسد في كلّ مورد يواجهه كي يختار بينهما، وهذا الأمر ليس بالميسّر أمام البشر العاديّين، لأنّ عقل الإنسان غير كافٍ من أجل معرفة جميع المسائل الجزئيّة في الحياة وتحديد جهات الخير والشرّ في كلّ موردٍ جزئيّ. ومن جهةٍ أخرى فإنّ التجربة تُشير إلى أنّ البشر ليسوا متساوين بشكلٍ كامل من حيث الإدراك العقلي، وإنّ بعض المسائل التي يُمكن إدراكها بواسطة العقل تحتاج إلى مقدّمات واستدلالات ليس بوسع الجميع أن يحصّلها.

وعليه، من جهةٍ أولى فإنّ البشر يختلفون فيما بينهم من حيث مستوى الإدراك العقلي - الذي يُعتبر إدراكًا طبيعيًّا عاديًّا -، ومن جهةٍ أخرى فإنّ تكميل هذه المعرفة بواسطة الوحي، إذا أُريدَ له أن يتمّ لكلّ إنسانٍ بشكلٍ مباشر، يلزم منه أن يكون جميع البشر أنبياء، ومن الواضح أنّه ليس لدى جميع البشر لياقة تلقّي الوحي الإلهي. وإنّ من الأصول المسلّمة عندنا أنّ عدد الأنبياء عليهم السلام على طول التاريخ



محدودٌ جدًّا، وأكثر عددٍ ذُكر هو مئة وأربعة وعشرون ألف نبي. وأيضًا لا يمكن لأيّ نبيّ أن يُبلّغ كلّ فردٍ من أفراد قومه بوظيفته الشخصيّة بشكلٍ مباشر، إذ هل من الممكن لإنسانٍ واحدٍ أن يُبلّغ مئات الملايين من الأفراد بوظائفهم اليوميّة بشكلٍ مباشر وكلًّا منهم على حدى!!

وعليه، فإنّ الطريق الوحيد المتبقّي هو أن تُبيّن وظائف الناس لهم في قالب عناوين كليّة، وهو الأمر الذي طُبّق في جميع الأديان واتّبعه جميع العقلاء في تبيين الأحكام الاجتماعيّة. وهذا كأن يُقال مثلًا: «ينبغي على جميع البشر أن يصلّوا في كلّ يومٍ عددًا من الركعات»، ويُحدّد لهم أيضًا نصاب هذه الركعاتً كأن يُقال لهم: «صلاة الصبح مؤلّفة من ركعتين، وصلاة الظهر مؤلّفة من أربع ركعات». وهذا العدد لا بدّ أن يكون موجودًا كي يستطيع عموم الناس أن يؤدّوا هذا الفعل بجميع خصوصيّاته.

ولكن أحيانًا يتّفق أن لا يستطيع البعض القيام بهذا الأمر حتّى، ففي هذه الحالة يُبيّنون المطلب بشكلٍ عام ويستثنون منه من خلال التخصيص المتّصل والمنفصل. ومن جهةٍ أخرى، في بعض الأحيان يكون هناك حكمٌ ثابتٌ لعنوانٍ معيّن وفيه مصلحةٌ تؤمَّن من خلال امتثال هذا الفعل، ولكن تطرأ ظروفٌ يكون فيها أداء الفعل مُسبّبًا لمفسدةٍ ما، بحيث لا يمكن تفكيك المصلحة والمفسدة عن بعضهما والقيام بهذا الفعل بنحوٍ لا يُسبّب المفسدة. فيكون هذا الفعل حاويًا على مصلحةٍ بسبب العنوان الأوّلي الذي

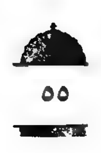


يحمل مصلحة، ويكون أيضًا حاويًا على مفسدة بموجب العنوان الجديد العارض عليه والمستلزم للمفسدة. ففي مثل هذه الموارد ينبغي أن نرى أيًّا من المصلحة والمفسدة هو الأقوى والأهم فنجعله المِلاك في هذا الحكم.

كلّ هذا يرتبط بمقام الثبوت، ولكن في مقام الإثبات من أين نعلم ما إذا كان هذا الحكم العام قد خُصّصَ في الواقع أم لا؟ ومن أين نعلم ما إذا كان لهذا البيان المطلق - بحسب الظاهر - قيدٌ في الواقع أم لا؟ أو في مورد وجود عنوانَين متزاحمَين، من أين نعلم أيّهما أهمّ مِلاكًا كي يجب تقديمه واعتبار مُقتضاه هو الحكم الفعلي؟

في بعض الأحيان قد يصل المكلّف إلى اليقين بوجود تخصيص أو تقييد أو بأهميّة أحد الملاكَين المتزاحمَين، إلّا أنّ هذا اليقين - بل حتّى الإطمئنان - ليس ميسّرًا دائمًا، بل قد لا يستطيع حتّى المتخصّصون وأهل الفن أن يصلوا إلى اطمئنان أو علمٍ عرفي في مثل هذه الموارد، فهنا لا محيص من الاكتفاءً بالظنون المُعتبرة. وإنّ للعقلاء أسلوبًا وطريقة في هذا الأمر، وهو أن يرجعوا إلى أهل الاختصاص في المسائل التي لم يتخصّصوا فيها، وهو ما يُعرف في الفقه بعنوان «التقليد». وفي المسائل الاجتماعيّة والسياسيّة يكون حكم وليّ الأمر حجّة، مع أنّه بحسب الظاهر ليس من المحال أن يُخطئ وليّ الأمر.

هذه الموارد هي في الشرع تمامًا كالأمور العرفيّة، أساليب عقلائيّة أمضاها الشارع المقدّس، وهذه الأساليب



هي المألوفة والرائجة بين العقلاء في تشخيص المصلحة والمفسدة أو الخير والشر أو طريق الوصول إلى الخير والشر، وقد وقعت مورد قبول الشارع، وفي النتيجة فإنّ التكاليف الظاهريّة للأفراد تختلف فيما بينها.

السؤال الثاني: هل إنّ الحكمة من التشريعات والأحكام الشرعيّة هي فقط تأمين الخيرات والمصالح التي تترتّب على امتثال هذه الأحكام أم أنّه من الممكن أن يكون هناك حكمة أخرى في المقام؟

جواب الشيخ حفظه الله: الأصل أن تكون الحكمة من الواجبات هي تأمين المصالح الواقعيّة، والحكمة من المحرّمات والأمور المنهيّ عنها هي اجتناب المفاسد الواقعيّة، ولكن من الممكن أحيانًا أن يكون هناك حكمة ومصلحة أخرى وراءها، كأن يكون المقصود مثلًا هو اختبار استعداد الإنسان وجهوزيّته لامتثال أيّ حكمٍ صعب، كما حدث في قصّة نبيّ الله إبراهيم عليه السلام، حين قال لولده إسماعيل عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[١].

في البداية نقول: إنّ الوحي الذي كان يصل إلى الأنبياء عليهم السلام، كان يتمّ في بعض الأحيان من خلال «مَلَك الوحي» الذي كان يهبط إلى الأنبياء عليهم السلام ويُلقي إليهم

---

(١) سورة الصافات، الآية ١٠٢.



كلامًا من الله تعالى، وهذا من قبيل نزول آية: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وسائر آيات القرآن الكريم على نبيّ الإسلام محمّد ﷺ. وأحيانًا كان يتمّ ذلك من خلال إلقاء مطلبٍ في ذهن النبيّ بأن يفعل الأمر الفلاني مثلًا. وأحيانًا أخرى كان يتمّ على هيئة رؤيا مجسّمة، فيرى النبيّ نفسَه هذه الرؤيا الإلهيّة مشغولًا بعملٍ ما فيُدرك بواسطة ذلك أنّ عليه القيام بهذا العمل في الخارج.

والنبيّ إبراهيم عليه السلام كان قد رأى في منامه أنّه قد مدّد ولده إسماعيل عليه السلام وهمّ بذبحه! ومن هنا اعتقد إبراهيم عليه السلام أنّ عليه أن يذبح ولده في الخارج، فقال له: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾، والحال أنّ هذه الرؤيا كانت في الواقع امتحانًا إلهيًّا، وقد كانت المصلحة من هذا الامتحان ظهور استعداد النبيّ إبراهيم عليه السلام وجاهزيّته لامتثال مثل هذه الأوامر العظيمة مباشرة ومن دون سؤالٍ ونقاشٍ، كي يصل عليه السلام بفضل هذا الأمر إلى أعلى مراتب العبوديّة والقرب الإلهي.

إذن، فقد كان في هذا الأمر مصلحة عظيمة ولكن ليست تلك المصلحة التي تترتّب عادةً على نفس الفعل. وتُسّمى أمثال هذه الأوامر اصطلاحًا بـ"الأوامر الامتحانيّة". وبالطبع إنّ جميع الأحكام الشرعيّة امتحانيّة بمعنًى من المعاني، إذ إنّ الله تعالى يريد من خلالها أن يرى ما إذا كنّا سنمتثل لأوامره وأحكامه أم لا، هذه الأحكام التي يعود العملُ بها على الإنسان بالمصالح الفرديّة والاجتماعيّة



والدنيويّة والأخرويّة. ولكن في الأوامر الامتحانيّة بالمعنى الخاص، يكون المقصود هو ظهور استعداد المكلّف، حتّى وإن لم يـؤدَّى هذا العمل أو لم يكن هناك أيّ مصلحة في القيام به. فذبح النبيّ إسماعيل ﷺ بحسب الظاهر لم يكن فيه مصلحة، إلّا أنّ الكمال الذي يناله ذلك الأب العجوز لمجرّد استعداده لذبح ولده امتثالًا للأمر الإلهي - ودون أن يقول: «وما ذنب إسماعيل كي أُقدم على ذبحه وأنا في هذا السنّ» - هو في حدّ ذاته مصلحة لا نظير لها تتحقّق من خلال هذا الأمر الامتحاني. والأعجب من ذلك أنّ النبيّ إبراهيم ﷺ قد نال هذا الاستعداد والجهوزيّة بعد عشرات السنين من العبادة والتجربة والتفكير وتلقّي الوحي، ولكن ماذا عن ذلك الفتى الذي قطعًا لم يبلغ العشرين من عمره، الذي عندما قال له والده: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾، أجابه: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾؟ إفعل ما أمرك به الله!! ولأنّه أحسّ أنّ ما يُقلق أباه هو ردّة فعله أثناء أداء هذه الوظيفة، لذا أضاف قائلًا: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾. فإنّ لديّ تسليمًا وطاعةً كاملَين، ولن يصدر منّي أيّ فعلٍ يوجب قلقَك.

السؤال الثالث: فيما يرتبط بقصّة نبيّ الله إبراهيم ﷺ، الذي رأى نفسه في المنام يحمل سكّينًا ويُمررها على نحر ولده إسماعيل ﷺ ففهم من ذلك أنّه مأمورٌ بذبحه، يُطرح سؤال هو: هل من الممكن أن يقع النبيّ في الخطأ أثناء تفسير الوحي ومعرفة المراد الواقعي منه؟



جواب الشيخ ﵀: إنّ الخطأ في فهم الوحي بمعنى أنّ الله يريد أن يُفهم النبيّ أمرًا ما فيفهم النبي أمرًا آخر، هو أمرٌ غير ممكن، والنبيّ معصوم عن الوقوع في مثل هذا الخطأ. أمّا مقصود الله تعالى من رؤيا النبيّ إبراهيم فهو أن يدفعه نحو القيام بهذا الأمر، وهو ما فهمه إبراهيم ﵇ وقام به، ومن هنا قال له الله تعالى: ﴿يَـٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآ﴾[1]. فالنبيّ إبراهيم ﵇ علاوةً على فهمه لهذا التكليف، تصوّر أنّ هذا الفعل سوف يوجب ذبح ولده وقتله، وهذا التصوّر خارجٌ عن محتوى الوحي والرؤيا، وهذا بالطبع لا يتنافى مع عصمة النبي في فهم التكليف الإلهي وأدائه.

السؤال الرابع: في كثيرٍ من الموارد لا يكون بمقدور الناس أن يصلوا إلى الأحكام الواقعيّة بسبب بُعدهم عن الأنبياء ﵈ وعدم وجود المدارك الكافية بين أيديهم فيُحرمون من المصالح المترتّبة على هذه الأحكام بل وقد يتضرّرون بسبب ذلك. فهل إنّ هذه الشرور والأضرار قابلة للجبران والتعويض، أم أنّه لا محيص للأفراد المطيعين لله عن تحمّل هذه الأضرار من دون وجود أيّ طريقٍ لجبرانها؟

جواب الشيخ ﵀: من أجل الإجابة على هذا السؤال لا بدّ من الالتفات إلى عدّة مطالب:

المطلب الأوّل: إنّ المراد من كون طريق الوحي وتعاليم الأنبياء جابرًا لضعف الإدراكات العقليّة ونقصها ليس

---

(١) سورة الصافات، الآيتان ١٠٤-١٠٥.

أنّه بقدوم الأنبياء تتحقّق العلّة التامّة لفهم الحقائق ومعرفة التكاليف بحيث لا يبقى بعدها أيّ جهلٍ أو خطأ في هذا المجال. بل إنّ المراد من ذلك هو أنّ الله تعالى لم يكتف من أجل هداية البشر بإعطاء العقل لهم، بل أضاف إلى طريق العقل طريقًا أوسع للهداية، ولكن في جميع الأحوال، كما أنّ الاستفادة من طريق العقل له شرائطه الخاصّة، فإنّ الاستفادة من الهداية الوحيانيّة أيضًا لها شرائطها التي يتوقّف توفير بعضها على الاختيار الإنساني.

المطلب الثاني: إنّ هذا الجهل بالأحكام الواقعيّة يُصبح في حدّ ذاته وسيلة لامتحان الإنسان وحصول اختيارٍ جديدٍ يُمهّد بدوره أرضيّة تكاملٍ أكبر. فعندما يكون من اللازم على الإنسان أن يسعى في سبيل فهم مفاد الوحي بشكلٍ صحيح، فهذا الأمر يُصبح بحدّ ذاته تكليفًا على الإنسان من شأنه أن يعود عليه بكمالٍ آخر ويكون العمل به موجبًا لثوابٍ إلهيّ كبير. وفي الواقع يُصبح هذا الجهل بالأحكام هو مقدّمة لامتحانٍ جديد للإنسان كي يُعلَم ما إذا كان سيبذل الجهد الكافي والسعي اللازم من أجل تحصيل المعرفة بالأحكام، أم أنّ تكاسله واتّباعه لهوى النفس سيُبقيه في جهله وانحرافه عن الحقيقة؟

المطلب الثالث: إنّه إذا سعى الإنسان بالمقدار اللازم في سبيل كشف الحقائق ولم يُوفّق في ذلك - لأيّ سببٍ كان -، فإنّ نفس هذا السعي يكون عبادةً فيها الكثير من الأجر، وهذا الأمر يجبر ذلك الرحمان من مصالح التكليف المجهول.

السؤال الخامس: بناءً على ما تقدّم، فإنّ هدف الله تعالى من الأحكام التشريعيّة هو أن يشخّص الناس طريق الحق ويعملوا بوظائفهم كي ينالوا المصالح الواقعيّة، ولكن لا يلتزمُ جميع البشر بهذه الأحكام، ودائمًا على طول التاريخ كان أكثر الناس يعصون هذه الأحكام والقوانين الإلهيّة ولا يعملون بها، فيُبتلون على إثر العصيان بأشكال الآفّات، بل ويتسبّبون بالمشاكل والأضرار للآخرين أيضًا.

السؤال هنا أنّه: ما هو ذنب الأفـراد الذين يعملون بوظيفتهم ولكن تطالهم الآثار السيّئة لأفعال الآخرين؟ فما هو ذنب هؤلاء كي يتضرّروا بسبب غيرهم ويُبتلوا بهذه الشرور؟ وهل إنّ هذه الشرور والمشكلات والنقائص التي تطال كلّ أفراد المجتمع بسبب عصيان مجموعةٍ منهم قابلة للجبران والتعويض أم لا؟

جواب الشيخ ﷺ: إنّ الآثار السيّئة التي تترتّب على الذنوب والتمرّد والطغيان على عدّة أنواع:

في النوع الأوّل من هذه الآثـار يكون الذنب بنحوٍ يجعل الشخص مستعدًّا لتكراره، بل وقد يهيّئ له أرضيّة ارتكاب ذنوبٍ أكبر، حتّى أنّ الأمر قد يصل بالإنسان إلى سوء العاقبة والابتلاء بالشكّ والشبهات في الدين، بل والانجرار إلى أودية الكفر والإلحاد والحرمان من السعادة الأبديّة بشكلٍ كامل. وهذه الشرور هي لازم طبيعيّ لأفعال الإنسان نفسه، ومن الممكن أن تنتهي به إلى العذاب

الأبدي، وكما أشرنا سابقًا فإنّ هذه الشرور هي من لوازم الاختيار الإنساني.

أمّا في النوع الثاني من الآثار فتكون الذنوب بنحوٍ يوجب ضـررًا ماديًّا على الآخرين، كغصب الأمـوال وقتل الأنفس. وفي هذه الموارد نقول: أوّلًا، إنّ الله تعالى قد جعل لمن تعرّض لمثل هذا الظلم حقًّا في الدفاع والقصاص من أجل جبران الضرر الحاصل له، فإن لم يُوفّق في أخذ حقّه جبر الله ضرره بفضله وكرمه في الدنيا أو في الآخرة. وثانيًا، إنّ هذا الظلم يهيّئ للمظلوم أرضيّةً لتكاملٍ جديد لم يكن ميسّرًا له سابقًا، إذ إنّ هذا الظلم يُحقّق موضوعًا جديدًا لتكاليف جديدة واختيارات جديدة، فهل سوف يدافع عن حقّه أم لا؟ وهل سوف يتصدّى لأداء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بلسانٍ جيّد أم لا؟ وهل سوف ينهض للانتقام من ظالمه أم لا؟ هل سيريق ماء وجهه ويسيء إلى سمعته أم لا؟ وغيرها من التكاليف الأخرى التي تُمهّد أرضيّة كمالٍ جديد للشخص المظلوم.

أمّا في النوع الثالث من الآثار فيكون ذنب الشخص الواحد موجبًا لأضرار معنويّة على الآخرين وحرمانهم من ثوابٍ أخروي. بمعنى أنّ فعل الإنسان يكون موجبًا لضعف الاعتقادات الدينيّة أو لظهور المفاسد الأخلاقيّة والعمليّة عند الآخرين. ومن الواضح أنّ مثل هذه الذنوب تُهيّئ أرضيّة امتحان واختيار للأفراد والجماعات وشرائح المجتمع المختلفة، وهي واحدة من أبعاد الشرور المقصودة بالتبع



أو بالعرض في النظام الأحسن. وإنّ هذه الذنوب تحمل معها تبعات ومسائل متعدّدة، من جملتها أنّها تُمهّد أرضيّة امتحانات كثيرة للآخرين - وخاصّةً للذين تعرّضوا للتضليل بسببها -، وتفتح أبوابًا وسيعةً من الرحمة الإلهيّة أمام الأشخاص الذين يؤدّون تكليفهم، وتعود بآثارٍ ونتائج متنوّعةٍ على الأشخاص بحسب مراتب اختيار كلّ واحدٍ منهم. ولكن ينبغي الالتفات بالطبع إلى أنّه ليس هناك أيّ أمرٍ غير اختياري يوجبُ مؤاخذة الإنسان بسببه أو معاقبته عليه.

السؤال السادس: إنّ النقطة المحوريّة التي وقعت مورد تأكيدٍ في الأبحاث السابقة هي أنّ الحكمة الكليّة من خلق أشكال الشرور وأنواع البلاءات في هذا العالم هي تمهيد أرضيّة اختيار الإنسان وتكامله وترقّيه. وبالالتفات إلى هذه النقطة الأساسيّة يُطرح السؤال التالي:

هل من الممكن أن تكون بعض الشرور نوعًا من العقاب والعذاب بالنسبة إلى بعض البشر على الأقلّ؟ وهل يمكن أن تكون حادثةٌ واحدة نعمةً لبعض البشر وعذابًا للبعض الآخر ومحض امتحانٍ واختبارٍ لفئةٍ ثالثة؟ فمثلًا هذا الوباء المتفشّي في هذه الأيّام، هل يمكن أن يكون بالنسبة إلى بعض الأفراد أو المجتمعات وسيلة تكامل وخير واكتساب فضائل أخلاقيّة، كالإيثار وخدمة الآخرين وغير ذلك من أشكال التضحية، كالأعمال التي يقوم بها الممرّضون والأطبّاء حين يعرّضون حياتهم للخطر في سبيل مداواة المرضى، ويكون بالنسبة إلى فئةٍ أخرى جزاءً لما اقترفوه من



ذنوب وعذابًا أنزله الله عليهم كي يكون سببًا في تنبّههم، أو موجبًا لجبران سيّئاتهم وتكفير خطاياهم، أو نوعًا من العذاب الناشئ عن الغضب والسخط الإلهيّين؟

جواب الشيخ ﷺ: كنّا قد ذكرنا سابقًا أنّ الشرور التي تقع في هذا العالم تارةً تكون شرورًا ابتدائيّة وتارةً تكون نتيجةً لعملٍ آخر. وهكذا العمل أيضًا تارةً يصدر عن نفس الفرد وتارةً يصدر عن الآخرين، ولكلّ واحدٍ من هذه الاقسام مصالحه الخاصّة. وإنّنا كبشرٍ عندما نقوم بفعلٍ ما، يكون غرضنا منه الوصول إلى هدف معيّن، ولكنّ هذا الفعل قد يحتوي على منافع أخرى لم تكن في الحسبان أصلًا ولم نكن ملتفتين إلى وجودها. غير أنّنا نتوهّم أنّ أفعال الله تعالى هي أيضًا على هذا النحو، والحال أنّ الأفعال الإلهيّة ليست من هذا القبيل، بل إنّ كلّ الآثار التي يمكن لظاهرةٍ معيّنةٍ أن تحتوي عليها - في الحاضر أو في المستقبل، للفرد أو للجماعة - تكون ملحوظةً ومقصودةً عند الله تعالى. إذ لا يعزب عن علم الله أيّ شيء وهو يُريد كلّ خيرٍ، وإن كان هناك أيضًا شرورٌ بالتبع أو بالعرض فإنّ إرادته تعالى ستتعلّق بها أيضًا بالتبع أو بالعرض.

وبناءً عليه، من الممكن لظاهرة معيّنة أن يكون الهدف منها أوّلًا هو مجرّد امتحانٍ لشخص أو جماعة، مثل الشرور الابتدائيّة التي تُمهّد للإنسان أرضيّة الاختيار: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾[1]، وأن تكون في الوقت نفسه وسيلةً

---

(١) سورة الملك، الآية ٢.

تنبيه وإيقاظ لآخرين كي يتنبّهوا ويستيقظوا، ومن الممكن أيضًا أن تكون هذه الظاهرة نفسها موجبةً لتخفيف العذاب أو تكفير السيّئات أو التطهير من الأدران بالنسبة لفئةٍ ثالثة. حتّى أنّه قد ورد في الروايات الشريفة أنّ الله تعالى في بعض الأحيان يقبض روح المؤمن بشدّة حتّى يخرج من هذه الدنيا طاهرًا ويكون هذا الأمر موجبًا لتطهيره من ذنوبه.

إذًا، يمكن أن يكون لأفعال الله تعالى مجموعة غايات مختلفة. ومن الملفت للنظر أنّ الكثير من الآيات القرآنيّة أشارت إلى أهدافٍ متعدّدة للأفعال الإلهيّة. ففي الكثير من الآيات الكريمة يقول الله تعالى «إنّا نقوم بالأمر الفلاني لكذا وكذا وكذا»، وأحيانًا يُحذف المعطوف عليه ويقول تعالى: «وَلَعَلَّ ...»[1]، أي إنّ لهذا الأمر أسبابًا مُختلفةً من جملتها كذا.

السؤال السابع: كان السؤال السابق يتحدّث عمّا إذا كان من الممكن للظاهرة الواحدة أن تكون خيرًا أو عاملَ لذّة لفردٍ أو جماعة ما وتكون في الوقت نفسه شرًّا أو عاملَ ألم لفردٍ آخر أو جماعة أخرى. وسؤالنا الأخير هو: هل من الممكن لظاهرة واحدة أن تكون بالنسبة إلى شخصٍ واحدٍ عامل لذّة وألم في الوقت نفسه أو لا؟

---

(١) كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، حيث حُذف المعطوف عليه.

جواب الشيخ ﷺ: هذه المسألة من المسائل العميقة والجديرة بالالتفات. وإنّـه لمن المناسب جدًّا أن تُعقد أبحاثٌ موسّعة حول جوانب هذه المسألة.

في البداية لا بدّ من الالتفات إلى حقيقةٍ في علم النفس تقول بأنّ للبشر مراتب مختلفة من حيث الرشد الإنساني. فكلّنا يعلم أنّ الإنسان في بداية وجوده لا يفرق كثيرًا عن الحيوانات، فيلتذّ عادةً بالأمور التي تُلائم بدنه وينزعج من تلك التي لا تُلائم بدنه، فيعتقد أنّ الشيء الذي يعود عليه بلذّة آنيّة محسوسة هو «الخير» والشيء الذي يُسبّب له الألم والوجع هو «الشر». ولكنّ هذه النظرة تتغيّر عندما يبلغ رشده، وكأنّ سطوحًا جديدةً وأعمق قد ظهرت في روحـه. فعندما يكبر الطفل يُدرك شيئًا فشيئًا عناوين كالاحترام والسمعة ويتعلّق بها، وعندما يصل إلى حدود سنّ البلوغ تراه يريد أن يحظى باحترامٍ عند الآخرين وأن تُحفظ سُمعته، فإن ارتكب خطأً تراه يسعى إلى إخفائه عنهم، وإن كان فيه عيب تراه يعمل على ستره، وإن كان يُعاني من نقص - أو حتّى جوعٍ - بسبب فقر عائلته فإنّه لا يُبرزه أمام أحدٍ إطلاقًا. فهو إن أحسّ بالجوع ينزعج حتمًا - حاله في ذلك حال أيّ حيوانٍ يُعاني الجوع - إلّا أنّه يحمل إحساسًا فوق إحساسه بالجوع، وهذا الإحساس يقول له: «لا ينبغي السماح لأحدٍ بأن يعرف حاجاتك ونقائصك»، ومع كلّ ما يعانيه من جوع، فإنّه لا يُظهر ذلك لأحد، بل يتظاهر بالشبع وعدم احتياجه إلى الطعام من أجل حفظ ماء وجهه. وهناك أمثلة كثيرة على مثل هذا الأمر. وهذا الوضع يشير إلى أنّ روح الإنسان قد رشدت وباتت تحوز استعدادًا طوليًّا أكبر.



ولقد وقف علماء النفس إلى حدّ ما عند مراحل الرشد هذه وبيّنوها باختلاف أشكال التعبير والبيان بينهم.

أمّا وفق النظرة الدينيّة فإنّ المطلب أعمق بكثير ممّا ذُكر، فأحيانًا من الممكن للإنسان الواحد في لحظة واحدة أن يحمل عـدّة أحاسيس مختلفة تجاه ظاهرة واحـدة. فافرضوا مثلًا أنّ شخصًا رأى طفلًا فقيرًا ومريضًا على وشك أن يفقد روحه بسبب الجوع أو المرض، ولا يمكن لهذا الشخص أن يقوم بأيّ شيءٍ لمساعدته. فبالطبع سوف يشعر بالحزن ويعتصر قلبه وتجري دموعه بسبب ما يراه، ولكن في الوقت نفسه قد يلتفت إلى أنّ الإحساس بالشفقة والعطف هو كمالٌ إنساني، فيفرح بسبب تحلّيه بهذا الكمال ويشعر باللذة في سطحٍ من سطوح روحه. وكذلك يوجد مراتب أخرى من الكمال لروح الإنسان، والتي لا يحيط علماء النفس المتعارفين علمًا كاملًا بها، غير أنّها تُطرح في المعارف الدينيّة تحت عنوان «مراتب الإيمان» وعناوين من هذا القبيل، بحيث يمكن أن يحصل في الإنسان في زمانٍ واحد وتجاه ظاهرةٍ واحدة إحساسٌ بالرضا واللذة وكذلك إحساسٌ بأضّدادها كالسخط والألم. فمثلًا قد يُبتلى الإنسان بمرض الالتهاب الرئوي فيُعاني من الأوجاع وضيق التنفّس وألم الصدر ويتأذّى بسبب هذه الآفّات، ولكنّه في الوقت نفسه قد يلتفت إلى أنّ من وظيفته أن يذهب إلى الطبيب ويتناول الدواء، فيقوم بذلك ويستحقّ على إثر هذا الأمر ثواب إطاعة الله والعمل بالوظيفة الشرعيّة. وبعد ذلك قد يلتفت إلى أنّ تحمّل هذه الآلام والأوجاع سوف يكون

موجبًا لغفران ذنوبه ونيل درجات الجنّة ورضا الله تعالى عنه. فهذا الإنسان في لحظة واحدة وفي عين إحساسه الألم والمرض سوف يشعر بأنواع اللذات المعنويّة بحسب مراتب المعرفة والإيمان والتوجّه إلى مقام الربوبيّة التي يتحلّى بها.

وفي الحقيقة إنّ ظرفيّة الإنسان واستعداده أكثر من هذا بكثير، وإنّ تصوّر مراتب الطمأنينة والرضا التي يتحلّى بها أولياء الله تعالى في مقابل المقدّرات الإلهيّة واللذّات العجيبة التي تحصل لديهم، ليس ميسّرًا للأشخاص العاديّين، وبالطبع، إنّ التصديق بهذه الأمور وإدراك نماذج عينيّة منها أصعب وأعسر. ومن النماذج على هذا الأمر ما رُوي عن الأئمّة عليهم السلام من أنهم يتألّمون ويحزنون إذا أصابتنا مصيبة ويفرحون إذا فرحنا، وقد نُقل في بعض الروايات عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «إِنَّا لَنَفْرَحُ لِفَرَحِكُمْ وَنَحْزَنُ لِحُزْنِكُمْ وَنَمْرَضُ لِمَرَضِكُمْ»[١]. وبالطبع إنّ هذه الزيادة الكميّة والكيفيّة في الحزن والفرح المذكورة في الروايات تقتضي أن يُزاد على مقدار ومرتبة حُزن الإمام عليه السلام وفرحه! فأيّ ظرفيّة هائلة واستعداد عظيم تحمله روح الإمام المعصوم عليه السلام حتّى يتحمّل كلّ هذه الأحزان والأفراح بل ويجمع بينها أيضًا[٢].

---

(١) محمّد بن الحسن الصفّار القمّي، **بصائر الدرجات**، الجزء ١، الصفحة ٢٦٠.

(٢) يُمكن تشبيه الاختلاف في الظرفيّة والاستعداد الروحي بين الأفراد بالاختلاف في اتساع الرؤية بين شخصَين حين ينظر أحدهما من شقّ ضيّق إلى قافلة من الجِمال في حالة عبور، فيرى في كلّ لحظةٍ واحدًا من هذه الجِمال فقط، وبين آخر يُشاهد عبور القافلة من سطحٍ عالٍ، فيرى جميع الجمال معًا.



ومن النكات الجديرة بالالتفات هنا أنّ نفس هذا الإنسان صاحب الاستعدادات المختلفة طوليًا وعرضيًا، إذا عَطَف تمام توجّهه نحو مرتبة واحـدة فقط وحصل على تركيز تام على هذه المرتبة، فإنّه بعد ذلك لن يُدرك ظواهر سائر المراتب، مثل الإنسان الذي يشعر بألم شديد ولا يمكنه أبدًا أن يلتفت إلى أمرٍ آخر. بالطبع، إنّ الإنسان الكامل باستطاعته أن يجمع بين مراتب منها، إلّا أنّ شرائط الحياة الماديّة لا تتحمّل التركيز على جميع هذه المراتب. بل حتّى لو حصل على تركيز كامل على مرتبة خاصّة بوصفها مصداقًا لـ«قُلُوبُنا أَوْعِيَةٌ لمشِيئَةِ الله»[1]، فإنّ بإمكانه أن يقول لا علم لي بالمراتب الأخرى: ﴿وَمَآ أَدۡرِى مَا يُفۡعَلُ بِى وَلَا بِكُمۡۖ﴾[2]، ﴿إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾[3].

بالطبع، إنّنا بمقدار ما وصلنا من الأدلّـة الوحيانيّة بإمكاننا التصديق بوجود مثل هـذه المقامات لبعض الأشخص. ونسأل الله تبارك وتعالى أن يفتح لنا نافذةً على هذه الحقائق ببركة عناية أوليائه الكاملين عليهم السلام، وأن يمنّ علينا بشيءٍ من هذه المواهب الخاصّة إن شاء الله.

---

(١) العلامة المجلسي، **بحار الأنوار**، الجزء ٢٥، الصفحة ٣٣٧.

(٢) سورة الأحقاف، الآية ٩.

(٣) سورة إبراهيم، الآية ١١.

ما وراء الشرّ

بحثٌ في فلسفةِ الشرور وتحديدِ الموقفِ إزاءَها

ما هي الحكمة وراء وقوع الآفّات والبلاءات التي قد تنتشر أحيانًا حتّى تشمل كثيرًا من الدول فيُبتلى بها حتّى الأطفال ومن لا ذنب لهم؟ وما هو موقعها في النظام الكوني المخلوق بحسب ما تقتضيه الحكمة الإلهية؟

يحاول المؤلف في هذا الكتاب أن يقدّم بحثًا جامعًا نسبيًّا، يشمل على الأقلّ العناوين العريضة لهذه المسألة، وإن كان لا يدخل بنحوٍ كامل في جزئيّات هذه العناوين.

وقد عولجت هذه العناوين في بُعدَين اثنَين: البُعد النظري والبُعد العملي. والمقصود من البحث النظري أنّنا نريد أن نفهم - وفق النظرة العقليّة والفلسفيّة - التوجيه العقلاني لوجود هذه البلاءات والآفّات - أو ما يُسمّى اصطلاحًا بالشرور - وعلّة وقوعها وكيفيّة حدوثها. ونحاول في البحث العملي أن نعيّن الوظيفة المناسبة التي ينبغي على الإنسان أن يؤدّيها في مثل هذه المواقف.

ISBN 978-614-440-207-8



